طاحونة النّمل

محمّد إسماعيل

رواية

بسم الله الرّحمان الرحيم

الطبعة الأولى: 1444هـ-2022م

ردمك: 978-9931-9804-4-5

اسم العمل: **طاحونة النّمل**

اسم الكاتب: **محمد إسماعيل**

تصميم الغلاف: دليلة حسناوي

الناشر /دار العكاظية للنشر والتوزيع الجزائر

هاتف/0658908590

جميع حقوق النّشر محفوظة للنّاشر وغير مسموح بتناول هذا الكتاب بالنّسخ أو بالتّعديل إلّا بإذن من النّاشر

إهداء

لقليل البخت الذي دائما ما تقابله العِظام في الكِرشَةِ،
لست وحدك..

الحُلم الفظيع و كابوسُ الواقع، كلاهما يقبض القلب والنفس، وكل النشاطات القذرة حتما سوف تُنتج واقعا قذرا.

الوجود والعدم، الحقيقة والخيال، كل المتضادات أنا، حتى الخير والشر، والعالم ليس إلا لوحة لا معنى لها فيما يبدو للحيارى التائهين، ضربا من اللا منطق في نشاطاته، وحين أردت التأويل ساءني أني أفقت منه على اللا شيء، فتراكيب لوحتي على الأقل غير محددة ولا واضحة، ثمة سماوات زرقاء كصفحات كتاب، وأرض صلبة كقلوب غالبية من عليها، وملائكة السماء تنزل وتصعد في بياض مشع خاطف كالبرق في مساحات حرة، بينما الشياطين تلتهم البشر، والبشر يلتهمون أنفسهم بوحشية وفظاعة، وفي أنفاق وممرات ضيقة قذرة، يجتمع أطفال العالم كأسماك ببِركة ماء تضاءل ماؤها، ثمة نحيب وبكاء وصياح بأصوات إناث متشحات بالسواد كالغربان الداعية للتَطيُّر، والناس كأسراب نمل عسكري أعمى داخل دوامة الموت المعروفة بطاحونة النمل، كأنها طقوس دينية لعبادة الحج عند المسلمين في ظاهرها، بينما في حقيقتها مستعمرة لا خلاص منها سوى بالهلاك من الإنهاك، أما أصحاب القيمة والحزن ففي ركن العزلة الشديد، لا يملكون شيئا سوى التأفف والتحسر، لقد وجدتني أنظر بعيني السائلة على خدي إلى

السماء البعيدة، وأنا قد هالني المنظر فقعدت عن التأويل مفوِّضا إذ يهمس لي قلبي الذي يخفق بين ضلوعي قائلا:

يبدو يا صديقي أن النظام قد انتحر وتركَنا في الفوضى، بينما نحن الآن نعطي الفوضى قيمة التنظيم.

المؤلّف

(أنا لم أفشل، لكني وجدتُ عشرة آلاف حلّ لا يَصلُح لإضاءة المصباح)

توماس إديسون

1

إنني كثيرا ما تنتابني نوبات حزن رهيب، أفهم جيدا بأن حياتي جديرة بهذا الشعور، وأعتقد أن المرء في عمر الأربعين يصطدم برأسه في عمود الخرسانة الأوسط في بناء ضخم، لينتبه انتباهة غريبة، ويفيق من غفلةٍ طويلةٍ، فتتغير لديه بشكل مفاجيء النظرةُ تجاه المفاهيم والحياة والعالم إثر تلك الصدمة من ذاك الاصطدام، كأن عينيه قد أصابها الحَوَل فرأى الأشياء على غير أُلفتِها، فقد استحال كلُّ شيء بعنيه معكوسا، هنا تتدفق التساؤلات كالأطفال التي تكتشف العالم والأشياء لأول مرة:

ماذا فعلت وفي أي شيء أفنيت الأربعين من عمري؟

هل مهمتي في الحياة هي أن أكون (حِمارَ شُغلٍ) فقط؟

أم حقا نحن نعيش حياة بلا معنى وأي هدفٍ فيها معنىً مُختَلق؟

هل حقا كما قال أحدُهم في روايته بأن الحياة يجب أن تكون أعمق من انهماكك للحصول على ثلاث وجبات!

بالنسبة لما يقوله الرؤساء دائما بأن الأجيال القادمة سوف تجني ثمار أعمال الحكومة، أولسنا أجيالا قادمة لمن سبقونا؟، فلماذا لم نجني؟!

ولماذا يقع الناس في نفس تجاربهم كل مرة ولا يستفيدون منها؟

ولماذا دائما الأمثلة التشبيهية على ألسنتنا فيها حشرات وحيوانات؟، فلان كلب فلوس، وجارتنا لسانها عقربة، وفلان حمار شغل، وآخَر دودة كتب...؟

ولماذا لم يتزوج الفقراء من الأغنياء فقط؟، ويُسن لأجل ذلك قوانين حاسمة لتجريم زواج الفقراء من بعضهم تحت مبدأ الأمن العام للعالم!

وما التفسير في كوْن صديقي الذي يتقاضى عشرة آلاف كل شهر ويمتلك سيارة وشقة في وسَط المدينة قد اتفق مع زوجته ألا ينجبان طفلا ثانيا إلا بعد ست سنوات، وهذا بعد تظبيط أوضاعهم على حد قولهم!، بينما صديقي الفقير العاطل قليل البخت والذي دائما يعثر على (العَظْمِ في الكِرْشة) لديه خمسة أبناء!، كيف نفكر؟ أو كيف يفكر الإنسان عموما؟

ثم أتساءل أكثر وأكثر:

ماذا استفدت أنا شخصيا من غربتي عشرين سنة كعبد عند كفيل خليجي غير بناء هذا البيت الذي أسكنه، وقد بناه غيري بدون غربة!، كل هذا لأجل حل مشكلة أطفال أنا من أوجدتُهم بمشاكلهم تلك؟!

ولأجل حل مشكلات مادية ما كانت لتكون لولا زواجي!، فهل الزواج يُعد نوعا آخر من الفتح العظيم؟

قال صديقي النسونجي:هو أعظم فتح يقوم به المرء في حياته.

الإنسان كائن يبرر كل شيء لو كان له حاجة فيه.

ورغم كل تلك التساؤلات إلا أن أسوأ شيء أفكر فيه هو:

ترى لو تغير الواقع للأفضل بأثر علوم وفنون أتت على أنقاض مؤلفيها ومؤسسيها، وظل هكذا قرنا من الزمان، ثم يأتي حاكم فاشل بعد ذلك، وبقرار فاشل مثله في ساعة من نهار يهدم به كل شيء، ثم الرجوع ألف سنة للوراء نتيجة حتمية لغباء مفروض!، هل لا يمكننا مجابهة هذا العبث؟

في الوقت لا جدوى من أي ثورة لو أن الشعوب ستكون فيها حُمُرا مستنفرة، تحركهم عواطفهم بدلا من العقل والإدراك الصحيح.

ثم هل من المعقول أن تسامح زوجةٌ زوجها بعد خيانته لها متعللة بالعيال وخراب البيت، بينما لو تزوج بأخرى فهي مرابطة بسلاحها في أرض المعركة تطلب النصر أو الشهادة!، على الرغم من مظاهر التدين التي تبدو في مظاهر وتعليقات الناس على كل شيء إلا أن الدين بمقاصده ومحاوره غائب واقعيا.

أصبحنا نرى بديهيات غير منطقية، فقد ترى المرأة مضاجعة القرد لو بين فخذيه الذهب والفضة وأوراق الدولارات أمرا عاديا!

وأهم سؤال يلح برأسي هو:

هل بَعد هذا البلاء المستبد بنا من خلاص؟، أم أن الله خلقنا قربانا لأولاد الحرام؟!

قذائف الأسئلة التي لا رباط بينها، ودون ترتيب، بوعي ولا وعي، تفيد بأن أثر اصطدام الرأس في عمود الأربعين الخرساني مؤلم جدا، جدا، خصوصا لمن لهَى في حياته الأولى وضيّع حماسةَ الشباب هباء، وخسر الكثير

ولم يحقق الكثير، إنني أزداد كل يوم بصيرة بما لا يدع مجالا للشك، أن الله خلقني لمهمة ما ولا زلت أبحث عنها في ظل عملية الخطف والاحتجاز التي أعيشها في هذا العالم، ولا أعرف شيئا غير ذلك، لكنني أبحث عن فِرار وخلاص للتحرر، ربما أتعرف على كُنْهِ تلك المهمة وشكل تلك الحياة!

عزيزي القاريء، أسعد الله أوقاتك، أنا الدكتور هاني، عفوا، أنا مضطر للذهاب لأصدقائي الآن ولنا عودة، فكن بخير.

الشمس ترسل الضوء لتكشف الموجودات ويرى الناس بشكل جيد ما يحيط بهم من كل اتجاه، فيعملون ويتحركون آخذين في نشاطاتهم بانهماك، وحين يغشاهم الليل يحجب عنهم الرؤية، فالليل ستَّار كما يقولون، وتجمعات الناس فيه تحوي أسرارا لا يمكنهم أن يتهاونوا في كشفها هباء، فلقاء الأحبَّة ليلا حين تحِنُّ الطيور إلى أوكارها، ولقاءات سمَر الأصحاب ليلا بعدما فرَّقَتْهُم مشاغلُهم هنا وهناك بالنهار، والاختلاء بالراحة والنوم ليلا كراعٍ يأوي إلى الظل بعدما قدحه لهيب الشمس، بل حتى اللصوص والأشرار إذ يتجمعون فيه على شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم..، وهنا في بيت "السيد على محمود" مأوى عدد من الأصدقاء وركن قوي يفزعون إليه كل مساء، يجتمع كل من: "هاني الطنطاوي حسنين"، و"أحمد مجدي عبد الرحمن" و "عبد المقصود عباس" و "عوض حسين" بشكل اعتيادي، كمقابلات جميع الأصدقاء على مقهى بوسط المدينة، جِلستهم الخاصة الرتيبة في جراج أسفل البيت بمنطقة شعبية متطرفةً جغرافيًا، حيث

السهر والسمَر والشاي والدخان وكثير من الفوضى والصخب والجدالات والتفلسف، لكن ما يجمع هؤلاء شيء واحد رغم اختلاف ثقافاتهم وأعمالهم، شيء واحد يدفعهم للقاء كل ليلة، يشغلهم، ويستبد بعقولهم ووجدانهم، الأمر لا يبدو سهلا، سيما والنتائج ملموسة حولهم، ولكن الفرصة يا عزيزي حين تتاح يجب اغتنامها بكل شراسة، لذلك فقد عنوا أنفسهم بذلك واتفقوا عليه، فمنذ أن أخبر الشيخ "عبد المقصود" صاحبَه الحاج "سيد" بالأمر واقترحه عليه إلا وطلب منه الأخير بإلحاح ألا يتكلم فيه مع أي أحد، وأخبره بأنه سوف يقوم بجد بالبحث عن أكفاء يحملون تلك المهمة، ولكل مجتهد نصيب، ثم من تلك اللحظة راحت تكثر ترتيباتُهم وهم يمضغون الدخان مع اقتراحات التخطيط في أفواههم، تتملكهم رغبة جامحة، كرغبة وحش جائع وحيد وسط غابة تلاشت فيها الحيوانات، وقد لمح كل منهم من بعيد ثورا سمينا، إما أن ينجح في الإمساك به ويحقق مراده منه، وإما أن يفشل ويَلقى الموتَ مصيرا بالجوع، هكذا هو حالهم، لكن _عفوا_ دعوني أخبركم بأنه في البداية كان الحاج "سيد" مترددا في الحديث مع بقية أصدقائه، فكر طويلا خصوصا الموضوع فيه جانب أسطوري، فسيرة الجن والعفاريت تصيب بالرعب أو القلق والريبة، والموضوع كله بالترتيب مع العالم الآخر، ظل يقلب الموضوع برأسه حتى ارتاحت نفسُه لأن يخبرهم به، ومن ثم طلب منهم أن يقسموا بالله على أن ما سيقوله لهم سيكون سرًا وأنهم لن يخبروا به أحدا أيا كان، فقد كان يخشى أن يتسرب

الخبر، وخبرٌ مثل هذا إنْ تسرَّب لم يَعرف أين سيذهب وبأي شيء يعود عليهم ؟، ظهرت على وجوههم علامات البشرى والفرح لمَّا سمعوا بالموضوع الذي بدا لهم قاربَ إنقاذ وسط بحر هائج كثير دوامات الموت، ثم انهمرت الأسئلة مدرارا كالمطر منهم على صاحبهم للاستفسار أكثر، ليجيبهم قائلا:

تعرفون أن البيت مهجور منذ زمن، وأنه ناءٍ خلف الزراعات الشاسعة، والطريق الترابي الرئيسي للقرية الأقرب منه تبعد أكثر من خمسمائة متر تقريبا، وحتى لو أبعد من ذلك ليس مُهمًا، فالناس يخافون من الاقتراب منه، لكن أنتم تعرفون _ لا شك _ أن الناس يُهوِّلون ويُضخمون الأمور سيّما لو تخص البيوت المهجورة، وسيرة العفاريت والجن والخرافات تنتزع الناس من واقعيتهم لعالم الخيال والأسطورة الغامض، وكلما كان الأمر أكثر خيالية كلما شعروا بلذة الرعب بداخلهم، وهذا طالما أنها مجرد حكايات بالنسبة لهم، وهذا الأمر سيحقق لنا الأمان بشكل كبير لا شك.

يأتي صوت الدكتور مقاطعا: أيُّ أمان يا فضيلة الشيخ؟، حديثك وكأن العادي هو خوف الإنسان من الإنسان وليس من العفاريت؟، أنت تعرف ما يقال ويشاع من حكايات عن هذا المبنى! .

: يا دكتور، أنت رجلٌ متعلم و لستَ جاهلا كغالبية الفلاحين هناك، قلت لكم بأن طبيعة الناس التهويل والتضخيم، هل تنكر أنه لو ظهر ثعبان في حجم دودة لفلاح أنه سيصيح في الناس بأنه رأى أناكوندا عملاقة ؟!.

يقول "أحمد" : نعم يا مولانا معك حق، لكن يبقى الموضوع مجرد حكايات، لكن ربما بالفعل المبنى مليء بالعفاريت التي ستقضي علينا فور اقترابنا، الموت بالفزع أشد سوءا من طُرق عاديةٍ و كثيرةٍ يعرفها الناس يا مولانا، سيبدو شكلنا مرعبا ونحن أموات، وسوف نُرعب الناس كما أرعبتنا العفاريت إن بدونا على تلك الحالة السيئة!، (والتفت للدكتور واستأنف): هل يُعقل يا صاحبي أن نظل بوسامتنا لسنوات طويلة ثم نموت بالرعب، والفزع ظاهر على وجوهنا؟

يقول الدكتور وقد ارتسمت ملامح الجدية أكثر على وجهه: يا جماعة مهلا، الاطمئنان مهم أي نعم، لكن من سيضمن لنا بعد مغامرتنا بأنفسنا أن نحصل على النتيجة، نحن نحتاج لتفاصيل تطمئننا أكثر كي يزول التردد والقلق؟

التفت الشيخ متعجبا وقال: يا دكتور، الحياة مغامرة، هل تعرف ما معنى مغامرة ؟، لو ظللنا غارقين في التردد والوقوف في دائرة (من يضمن لنا) لن نفعل شيئا، فهل تضمن أن تقوم من مقامك هذا؟، ومع ذلك أنت مطمئن غير متردد، لماذا عندما يتعلق الأمر بنتيجة عظيمة تَعظُم القلاقل في عقولنا ونتردد كثيرا ؟

يقاطعهم "عوض" باستحياء : فعلا كلامك صحيح يا مولانا، لكن أيضا كل شيء بعقل وبحساب دقيق.

يُطلق الشيخ تعليماته بحزم: اسمع يا دكتور أنت وعوض، لا عقل ولا قلب هنا، لا مجال للتردد، هنا فقط غريزة، غريزة أن تطفو على وجه الحياة لا أن تظل منسحقا تحت أقدام الحمقى من التافهين المغتنمين للفرص بجِلّها وحرامها، الفرص كلها تتجه نحوهم، العبث والتفاهة يملآن الحياة.

دارت عين الدكتور بكل الاتجاهات، يفكر قبل أن يأتيه هاجس داخلي يدفعه لقبول المغامرة، بينما ظل الباقون يستمعون كأنهم في مناظرة، ثم في النهاية يبدو أنهم قرروا خوض مغامرتهم ولا مجال لأي كلام آخر.

2

إنني لا زلت أفكر، عقلي حاد مثل محراث زراعي، وأفكار تفد على دماغي كأنني على وشك الجنون.

لا زلت أتساءل، أنا كإنسانٍ مَن صنعتُ العالمَ بعدما أوجدَه خالقُه، أنا من أضفيتُ عليه قيمة ومعنى، أنا من جعلتُ له قيمة حياتية نابضة، أنا الأعلى بين المخلوقات، لماذا تغيرَت نظرتهم بعد الحداثة وجعلونا مجرد شيء، الحضارة المادية أخذت مكانتنا، نحن وقودها، لماذا يُضحى بي كإنسان لأجل الحضارة؟!

لماذا ترتيبي هو الأخير في المعادلة؟، أوليست الحضارة التي يصنعها الإنسان هي تطور مادي وروحي ليرتقي بنفسه ومجتمعه أيها السادة؟!

لماذا كل منجَز يقوم به حكام العالم يكون على حسابي أنا الإنسان؟!

لقد أرهقني ذلك جدا حد الاضطراب، لقد ضللتُ طريقي الذي بات ملبدا بالغيوم والضباب، لقد فقدتُ الثقة فيهم وفي حضارتهم،

لكن لا بأس، يجب أن نُعدَّ العُدةَ لمجابهة هذه الأوضاع القاسية التي أُلقينا فيها رغمًا عنا، علينا أن نحيا ولو قليلا بعد هذا العمر النافق في اللا جدوى حياةً نشعر معها بوجودنا، تكونُ دليلا على أن أقدامنا وطئت هذه الأرض، نعم، علينا أن نفعل أيَّ شيء يَشعر معه هؤلاء الحمقى أننا قادرون على التحدي، وعلى قلب الطاولة في وجه تلك الظروف، وليعلموا أيضا بأن

أيدينا تستطيع _ ومن اليسير جدا _ أن توجد لها في الشر أعمالا كثيرة، بالطبع نستطيع، سيما هم من منعونا من المُضي في الخير والقيمة، لكننا رغم ذلك نريد الانضباط لذات القيمة لا لشيء آخر، القيمة التي تحتاج قبل أن تخرج خارج صاحبها أن تطمئن لكوْن صاحبها له قيمة، لقد أوذينا إيذاء لا يتقبله عاقل ولا يتجاهله صاحب كرامة، يالهم من وضعاء وأندال، هؤلاء الذين فعلوا بنا على مر العمر الذي مضى منا ومن آبائنا وأجدادنا ما يجعلنا نموت ككلاب السكك دون عيش هانيء أو كرامة، يبدو أنهم سَيبقون للأبد، أعتقد ذلك، ربما أكون محبَطا أو جزعا، لأن الخلاص دائما يكون منا نحن، نحن القرابين، نحن من يُضحَّى بهم دائما لأجل أي فكرة وردت على دماغِ ثَمِلٍ، أو بين فخذَي عاهرة وهي نتقلب على فراش المتعة واللذة، فقط لأنهم يتحكمون في مصائر الناس، ولأن السلطة بأيديهم، بينما نحن نمد أيدينا لصدَقة من حب أو سلام، ولأمن نضمن به الحفاظ على حياتنا وسط القلق الكبير، الحياة صعبة لا تطاق مع هذا الفصيل البشري الغريب، وأنا إذ خسرتُ الكثير من نفسي وراحتي وعمري، يجب أن أستعيض أي شيء من غرور بعد انتهاك ما تبقى من كرامتي، بعد الأربعين العمر يزداد سرعة، وفكرة أن ما مضى من عمري أحسنَه تصيبني بانفعال وحنق، حتى لو عشت أربعين سنة أخرى فلن تكون بحيوية وصلابة وحماسة أربعين مضت، أمراض الشيخوخة نفسيا وعضويا تحل محل طموحات الشباب وقفزاتهم، سامحوني أنا لا أحبطكم ولا أود ذلك، أنا فقط بحاجة للفضفضة بما

يؤرقني، أخبروني أنتم بالحقيقة، هل تشعرون مثلي أم أنني الوحيد بالعالم؟، دعوني أكمل لكم ولتتخيلوا أننا على طاولة بمقهى جميل رتيب، والضوء الخافت يحيطنا مع موسيقى كلاسيكية، ورائحة العود تفوح بالمكان، تخيلوا وأنتم تسمعونني، واصنعوا خيالا ومجازا ودعوني أكمل لكم.

لقد عشت الفقر صابرا غير راض، أحاول مجتهدا كل مرة تسلُق جدار الفقر لأرتمي من أعلاه على طبقة أرقى، فجميعنا بشَرٌ، نستحق أن نتطور ونلمس أثرَ سعيِنا، لماذا يعيش البعضُ ملوكاً والبعض عبيدا ؟، الأمر لا علاقة له بالقدَر والنصيب الذي يخدروننا به كي نخرَس ونرضَى، تلك المفاهيم من شأنها أن تزيد من عبودية الناس ورِقِّهم والتماهي في فقرهم وذُلهم بخنوع دون التطلع والسعي لما هو أفضل، سنوات طويلة أتقلب في حاجة تلو أخرى، ومن مَشاق الظروف لأخرى دون فرصة جيدة، كأن طموحي جحيمي، لقد كنت أستطيع أن أكون مثل الكثيرين، شريرا أنانيا، أو ذليلا متملقا متسلقا، آكل من على كل الموائد دون مبدأ، كان يمكنني ألا أُضَيع عمري في التعليم الذي لا طائل منه في هذا المجتمع سُوى أن يجلب عليَّ التعاسة والشقاء؛ لأنني ما فعلت شيئا واقعيا، ما تعلمت حِرفة ولا وفَرت ما أنفقتُه من مال وراحة، في وقت أن هذا المال جاء بالتهام صحة والدي المسكين، الذي لم يذُق من الحياة أي متعة أو لذة، ولم يستشعر جمالياتها، وإنما عاش _ عفوا _ كحمار الرَحى يلف ويدور ليجلب لي ولإخوتي القليل من المال كي نأكل ونشرب، وقت أن كان كلبُ جَدِّي يخرج مرتاحا بعد

نوم طويل ليأكل بسهولة من أقرب قمامة ويعود شبعانا لينام نومة الملوك، ونحن كبشر مفضَلين مُكرمين لا نستطيع راحة كلب، كلامي قاس لكن لتسمعوا بمقدار شُرب كوب الشاي الذي أمامكم، أكثرنا لم يحصل على حظ كلبٍ مثل كلب جدّي المدلل، يشبعُ بينما إنسانٌ هنا لا يجد له طريقة للشبع الكامل، بل لابد أن يجوع ثلثي الليل ونصف النهار، تئن الأطفال في الظلام دون جدوى، ثم ينامون من التعب بجوار الكلب الذي نام من الشبع، لقد عشت أرى وأسمع وأحس بمعاناة العائلة التي هي واحدة من عائلات كثيرة في هذا البلد، نشتكي كثيرا بينما يخرج المُذيع في نشرة الأخبار ليُبشر الجميع بما حققه السيد الرئيس من إنجازات لا نهائية، وأن الأرقام التي تدل على النقص تتضائل بشدة، بينما تنمو الأرقام الدالة على الكمال بسرعة الضوء، عالَمُ الأرقام لم ولن ينتهي بعد، يجب كما أن هناك عالَم الحيوان وعالم البحار على التلفاز، أن يجعلوا لهم برنامجا مخصصا طوال الأربع والعشرين ساعة، يسمونه بعالَم الأرقام!، النشرات الإخبارية دائما وكأنها تنعتنا بالعَمى وبلادة الشعور والحمق؛ لأننا لم نرَ حولنا أيَّ شيء من إنجازاتهم المقدسة، وأننا لم نُفلح سوى في الشكاية والبكاء على ضيق الحال.، أذكر أنه حين كانت تستضيف تلك المذيعة السافرة مسئولا كبيرا في الدولة ليحدثها عن نمو اقتصاد البلد بسرعة رهيبة آخِر عامين، بالطبع كنمُّو نهديها السريع وتضخمه مقارنة بأول لقاء في قناتها التي توظفَت فيها حديثا بواسطة مسئول آخر، فقد راحت تحشو نهديها ومؤخرتها بالسليكون

كي تبدو فاتنة تليق بمكانة مذيعة للنشرة، في تلك الفترة كانت زوجة أخي الأصغر تطلب منه الطلاق لأنها ما عادت تحتمل الفقر وضيق الحال، فهو موظف بسيط بالإدارة الزراعية ولا يحقق له راتبه استقرارا معيشيا، امتلأ البيت برجال عائلة زوجته وحريمِها، وبعد كلام كثير وصياح وتراشق بالألفاظ قرر أخي أن يطلقها استجابة لطلبها وحفاظا على ما تبقى من كرامته، وقال لها حين نظر إليها آخر نظرة وهي على عتبة البيت:

يا أم العيال، تذكري أنك تركتني لفقري رغم افتقارك أنت للصبر ولأشياء أخرى صبرتُ عليها، وقد كنا أغنياء بصبرنا، لا يهم، ربما بعد انتهاء عِدتك مباشرة تجدين رجلا ثريا تتقلبين معه في نعيم الحياة، هكذا تعتقدين، لا بأس، ولو كان كذلك.. فلا تنسيني من صَدقاتِك وإحسانك!

خرجت كلماته ساخرة مؤلمة، كاد قلبه أن يتوقف من الموقِف، و خرجت زوجته تمسك بيد طفلتها خلف أهلها، تحمل حقيبة الثياب على رأسها، وتركته عاريا في برودته، يبكي ليلته التي شابَهَت ليلةَ القبر الأولى في وحشتها وظلاميتها، وهو الحنون الذي تعلقت أنفاسُه بأنفاسها ولم يحب أبدا فراقها.

وقتها وضعتُ يدي على كتفه وقلت له مواسيا:

هوّن عليك ياأخي، لعلها تعود بعد حين، أتركها لعلها منفعلة أو...

فأجابني مقاطعا: لا يا دكتور، لا تعطيني مسكنات، فلم يَعد بيني وبينها ذلك الشعور الذي كنتُ فيه متوحدا معها، الآن أصبحتُ بعينها غيرَ كفؤ،

لقد تمردَت يا دكتور، والمرأة المتمردة لو عادت لن يكون الرجل بتلقائيته معها؛ سأفكر في نظراتها بشك، وأفسر كلامها بحساسية، وهذا مؤلم جدا، مؤلم يا دكتور رغم أن الألم في فراقها كبير، لكنّ ألم الفقد وإن كان قاسيا فهو أهون من ألم الكرامة والرجولة.

عانقتُه بشدة، كنت حزينا لشد ما تألم قلبي، ولم أجد ما أجيب به عليه، ليتني أملك من المال ما أشتري له به راحته، المشكلات المادية أتفه أنواع المشكلات في حال وجود المال، وفي غياب المال تتحول لمعضلة إنسانية.، أخي يصغرني بست سنوات لكنه ناضج بما يكفي لأن يقود تجربته بنفسه.، هكذا وشوشتُ قلبي.

لقد تكررَت في منطقتنا الشعبية حالات الطلاق الكثيرة، كل امرأة تمردَت تركَت بيتَها وتطلقت، وربما تترك أطفالها، ثم بالمراقبة والملاحظة بعد حين لم تجد تلك النساء ما كان في خيالهن من حياة أهنأ عيشا، فقد خرجن للعمل بعدما ضاقت بهن بيوت آبائهن البسيطة بالطبع، فضيِق العيْش قد نال من الجميع، والأوغاد يتربصون بالمطلقات والأرامل إذا اضطررن للعمل، فهم كثيرون في هذا المجتمع بكل طوائفه وفئاته، يتخيلون أن تحت ثياب كل امرأة من هؤلاء جمرة ملتهبة تتلوى منها صاحبتها، مساكينٌ هؤلاء بعقولهم التي في رؤوس فروجهم بالطبع، ومن النساء من لم يجدن بُغيتَهن بعد الانفصال فيوجِدنَ لهن في السوء ملاذا هانئا، آهٍ، لقد تغيرتِ الحياة البسيطة إلى معقدة، وتبدلت أحوال الخلق، وضاعت أخلاق الكثيرين،

وانتشرت الفردية بالمجتمع، والجمرة الملتهبة الحقيقية في أيدي أصحاب الفضيلة والقيمة، يتألمون من لهيب حسرتهم..، بالأمس خرج الوزير في مؤتمر صحفي يخبرنا بأن راتب المعلمين سيزداد ألف جنيه.، فرح الناس بتلك الزيادة وهللوا للحكومة، ولم يفكروا بعقولهم، فمنذ عدة أيام خرج نفس الوزير يتكلم عن نقص عدد المدرسين وعن عجز ميزانية الدولة عن دفع رواتب الموظفين..!، فكيف سيزيد الراتب ألفًا؟

لم يفهم الناس بعقولهم بل بعاطفتهم، وهذا هو بوابة جحيمهم، لم يعرفوا بأنهم سيقومون بدور موظف كان ينبغي أن يتم تعيينه، وعليه فمقابل الألف جنيه الإضافية سيقوم الموظف بعمل موظف آخر، وكأن الحكومة تقول: بدلا من تعيين موظف جديد ومنحه راتبا يقدر بثلاثة آلاف، أعطيْنا الموظف ألفا زيادة ووفرنا ألفين.، وفرح الموظف المطحون بالألف جنيه كأنها منحةٌ يجب أن يُقبّلوا أيادي هؤلاءعليها، وأما عن العمل لساعات إضافية فلا يهم، فهؤلاء الموظفون منهم من كانوا يعملون عملا إضافيا آخر، أعرف مدرسا محترما كان يخرج من بعد العصر بالتوكتوك ليُحسن دخله، لكنه ذات يوم وجد مُحضَرا يسأل عليه أمام البيت، فلما تبين عرف أنه متهم بالضلوع في عملية سرقة أنابيب غاز بواسطة التوكتوك، فما كان منه سوى أن وكَّلَ محاميا، ثم بعد طول تحقيقات وقلة قيمة وكلام الناس بكل مكان، اتضح أن من قام بالبلاغ أخطأ في وضع رقم من أرقام لوحة التوكتوك المرورية، ظل أياما حتى خرج وهو يلعن التوكتوك ومن صنعه ومن

استورده.، فمثل هذا وبعد تلك التجربة التي كان سيفقد فيها وظيفته لولا عناية الله، ناهيك عن سمعته وسمعة أسرته، لا شك سيتقبل نفسيا فكرة الألف جنيه الزيادة على أن يقوم بعمل ثلاثة معلمين وليس واحدا، الظروف تجبر الناس على فعل اللا منطقي، والحكومة عبقرية في تهيئة المواطن لتنفيذ ما تريده من قرارات وخطط.

سأحدثكم عني، أنا كصيدلي قدمت استقالتي من الوظيفة بعدما أيقنتُ بأنني عبدٌ حبشي لها، نعم فعلت ذلك برضىً تام، بعد خمس عشرة سنة موظفا لم أشعر بالرضا أبدا لسوء الحياة الخاصة وحركتها البطيئة، كثيرا كانت مشاكلي مع المديرين، مرات كثيرة خضعت للتحقيق والجزاءات، لذا بعد صراع طويل وشعور بفقدان الحرية تركت الوظيفة ورحت أعمل براتب أعلى في صيدلية كبرى بالمدينة، كنت ذا خبرة عالية إذ كنت في نهاية الثلاثين من عمري، قضيتُ ثلاث سنوات من عملي بتلك الصيدلية تعادل في كفتها ما مضى من حياتي قبلها، حرية مع رغد نسبي في العيش، تتبعها راحة نفسية، وهل يحتاج المرء أكثر من هذا مع العافية؟!، ولكن لم تدم تلك الراحة أكثر من ثلاث سنوات، كأن هذا هو نصيبي من الاستقرار، ثلاث سنوات فقط، ثم الاضطراب نمط حياتي خاص بي، ففي يوم كئيب تم القبض فيه على صاحب الصيدلية وفوجئت بأنه سيء السمعة في لحظات، كل شيء يتهدم، حتي قناعتك في شخص لسنوات فجأة تحولت لأوهام، لقد كان حويطا جدا، لا يعرف أحد عنه شيئا بسهولة، كان كثيرا ما يفعل الخير

للناس، ويسدد بعض فواتير الدواء للفقراء على حسابه الخاص، زاع صيتُه الحسن، وهذا ظاهره الجدير بكسب الثقة والاحترام، لكنه في الخفاء يتاجر بالممنوعات، وعرفت بعد ذلك أن لديه معملا سريا يقوم فيه بتصنيع تلك العقاقير مع معاونين له متخصصين ومجموعة يبيع لها بالجملة لتبيع هي للجمهور، لذلك كان يربح كثيرا ويعطي رواتب ضخمة، وله علاقاته العميقة مع مسئولي المنطقة، ولم يبع شيئا من تلك العقاقير في صيدلياته، حين عُرضت عليَّ رواتبُه التي يمنحها للصيادلة جعلتني بعد تفكير طويل وتردد، أن أتنازل عن الوظيفة، راتبي الضئيل كموظف مع طبيعة العمل الشاق وتحكمات رؤسائي كان يصيبني بالضجر الملازم لي في حياتي، وكان يساوي راتب عامل عادي تم تعيينه بالدبلوم في أي جهة حكومية، ثلاثة آلاف ومئة وخمسين جنيها، ومبررهم دائما هو كلمة (عجز)، مع زيادة ساعات العمل، وبعد أن تركتها وعملت بالصيدلية التي أخبرتكم عنها كان راتبي أربعة آلاف ونصف ومع الوقت زاد ليتعدى الخمسة آلاف، كان أصدقائي الصيادلة في تلك الفترة زاد معدل رواتبهم بحوالي مئة وخمس وثلاثين جنيها، كنت أعمل من الثالثة عصرا وحتى الحادية عشرة ليلا، ثم أعود لزوجتي وعيالي لأسهر معهم للفجر، ثم أنام لقبيل موعد العمل عصرا، كنت مرتاحا، وأحببت القطاع الخاص والحرية، ثم بعد أن انكشف أمر هذا الصيدلي حصل ما حصل، وخرجتُ أبحث عن عمل آخر فلم أجد سوى عمل بألفين ونصف فقط، لقد أخبرتكم بأنني متحسر على تعليمي هذا الذي لا طائل منه، وربما

تساءل أحدكم كيف هذا وطبيعة الناس يحبون الوظيفة والراتب الثابت المستقر حتى ولو كان قليلا؟!، أخبركم بأنني لا أؤمن بهذا المبدأ، وإلا فما كنت تركت وظيفتي ولو عُرض عليَّ عشرة آلاف، كنت سأتعلل وقتها بما يتعلل به الناس من أنها وظيفة ثابتة الدخل ومعاش لزوجتي وعيالي بعد رحيلي، بينما الكثير المنقطع لا معاش ولا أمان فيه !، لكني فعلت ذلك فحسب، وإن كانت المغامرات في هذا الواقع غير مأمونة العواقب، لكن يا لحظ من ينجح في مغامرته!، سيعيش مرتاحا، وسيقول الناس وقتها: ياليت لنا مثل ما أوتي هذا الحُر المغامر، (إنه لذو حظ عظيم)، في وقت أن عبيد الوظيفة الذين اختاروا الأمان بقعودهم على الشاطئ يردّدون بتبرير (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض)، رغم أنهم لم يعرفوا لذة السباحة داخل الماء يوما، إن تبرير الفقر وتبرير الفشل بنصوص الديانة وتعليق ذلك على شماعة القدَر يشبه سلوك البعض ممن يؤسسون للذل والخضوع للظالمين الطغاة أيضا بنصوص الديانة، هذه غايتهم (وكذلك يفعلون)، المهم أنني الآن حُرٌ لكنني أسيرٌ بنفس الوقت، حُرٌ من وظيفة تلتهم العمر التهاما، وأسيرٌ في سجون الحاجة بعدما عصفت الحياة بي، بل بنا جميعا، هل تتفقون معي أم ستتهمونني بالغباء؟، ومع كل فحتى لو ستقولون لي كلاما يشبه كلام صديقي الأستاذ "أحمد" في مجرد آراء وقناعات، وكل منا يفعل ما يراه صائبا من وجهة نظره.، منذ أيام خرجت الوزيرة تقول بأن الخطة الحالية والتي تسير عليها الحكومة ستحقق بعد خمسين سنة لدولتنا مركزا

متقدما عالميا في الاقتصاد، قلت ساخرا: هذا صحيح، لأنها حققت اكتفاءً ذاتيا من البيض..!

وربما سوف يصدّرون البيض لكل العالم!، هنا تذكرت أيام أن كان الخمس بيضات بجنيه واحد، من عشرين سنة ويزيد، نَعم كان البيض وقتها صغير الحجم، لكنه لذيذ، الآن كبُر حجم البيضة لا أعرف كيف؟، ربما الدجاجات كانت تغش البيض حين كان رخيصا إذ لا ربح فيه يملأ عيونهم، ربما، كثيرة هي السلع التي لا يكتفي منتجوها برفع السعر فقط، بل يرفعون السعر ويقللون من الوزن والحجم، تخيلت الدجاجة تخرج بتصريح للعالم كهؤلاء الوزراء بالضبط، لتقول للشعب: أيها الشعب، لقد رخص بيضي حتى صارت الخمس بيضات بجنيه واحد، ثم أنتم تتمردون على حجم البيضة وتطالبون بحجم أكبر، بينما أنا الدجاجة لا ولن أجرح مؤخرتي لأجل المزيد من الخسارة.

أما الآن فيمكن للدجاجات أن تجرح مؤخراتها لأجل الربح الوفير حاليا، بل يمكن لهؤلاء التجار الحاقدين على كل صاحب سلعة رابحة أن يبيضوا بأنفسهم، شيء يثير الضحك حين نفكر هكذا، وبأن الدجاجة تهتم بالاقتصاد.، أخبَرني أحدهم بأن ثمن كرتونة البيض أغلى ثمنا من الدجاجة!

قلت: الأمر بسيط، علينا أن نبدل الأدوار، نقلي الدجاجة ونسلقها، ونصنع المرقة من البيض.

من عدة أيام بسيطة ذهبتُ إذ كنت ضجرا جدا إلى المسجد، عملتُ بنصيحة زوجتي "ميادة" التي ألحت عليّ بها، ولا أخفيكم أنني أدخن بشراهة، وحالتي المزاجية تحت الصفر، وجدتني أتوجه نحو المسجد وقت النداء، وحين وضعت يُمناي داخل المسجد التهمتني العيون، تعجبوا من دخولي المسجد بالطبع، فأنا بنظرهم كافر لا يصلي حتى الجمعة، سمعت من أحد جيراني أن الشيخ (...) قال بأنني مرتدّ، ولا يمنعني من الصلاة غير الضجر من الحياة القاسية والكسل في الحقيقة، المهم، دخلتُ دورة المياه وتوضأت وخرجت لأصلي ركعتين تحية المسجد وإذا بي أشعر بدوار رهيب فجأة، المسجد بمن فيه يدور ككرة، سقطتُ على وجهي، تجمع الناس حولي في تعجب وخوف، يحاولون إسعافي رغم أنهم ما اتصلوا بالإسعاف، ظنوا أنني سوف أفيق بعد إغماءة عابرة بسيطة، في لحظات خلتُ أن النداء للصلاة جرس يدق برأسي لحدٍ قاتل، وأن الإمام وقف ليصف الناس ليرميهم بطلقات الرصاص، وكل معاني الآيات المكتوبة على محيط جدران المسجد بيضاء لا نستطيع قراءتها ولا تفسيرها، في لحظات رأيت فيما يرى النائم أني أمد يدي بداخل إناء عملاق يسبح في الفضاء، وأغترف غرفة منه لأغسل بها بين فخذي الأرض المرهَقة، كي أزيل أثر الدماء النجسة التي أسالها البشر عليها.، أفقت وأحدهم يجذبني من أنفي بقوة ويرفعني لأعلى كأنه يريد خلع أنفي، ربما قال في نفسه بأنني قطعتُ النفَس وعليه فلا فائدة من وجود أنفي في وجهي؟!، دفعَهُ أحدهم وقال له في غضب: أنت غبي؟، ماذا تفعل؟، (بالطبع

هذا الحوار حُكِيَ لي بعد ذلك)، قال الرجل: أنا أحاول تنشيط جهازه التنفسي.، في وقت أن آخر أراد تنشيط جهازي العصبي بمسمار قطَّع به كعب رجلي، والحمد لله أن أحدا لم يُقبل على تنشيط جهازي التناسلي.

الجهل منتشر في تلك الرقعة من الأرض، لا زلت في إغماءتي والناس منشغلون بي عن الصلاة بينما بدأ المصلون صلاتهم في مساجد أخرى، كان قد انطلق طفل لزوجتي كطلقة رصاص ليخبرها بما حدث لي، قالت لي فيما بعدُ: خرجتُ خلف الطفل مندفعة نحو المسجد كمجنونة، وكانت تجلس في طريقي امرأة عجوز أمام بيتها، سمعتها تقول (لا حول ولا قوة إلا بالله، الرجل دخل ليصلي وقع ميتا).، لقد وقع قلبي في رِجلي، وهرولتُ أسرع باتجاه المسجد وكنتَ قد بدأتَ تفيق، أجلسك الناس وتجمعوا حولك حتى اطمأنوا، جُن جنوني وبكيتُ خوفا عليك وقلقا، لكن الحمد لله الذي نجاك.

بالفعل لقد رأيتها تبكي، ونظرت إليها وإلى الناس باستغراب لما أفقتُ، وقمت لكن لا لأصلي بل لأتكئ على كتف زوجتي وأعود للبيت، باليوم التالي تندر الناس عليَّ وتحاكوا بقصتي تلك، قالوا: جاء الدكتور ليؤخرنا عن الصلاة ويشغلنا ولم يصلِّ معنا، لم يجد مكانا يسقط فيه غير المسجد؟!.

وكان إمام المسجد هو الشيخ "عبد المقصود"، قال لي ممازحا بعدها: والله ما كان يشغلني في كل هذا إلا سؤال يلف ويدور برأسي، وهو ماذا فعل الدكتور حتى يموت في المسجد عند أول صلاة له ؟!، و ضحك وقال مستأنفا: أنا لي ثلاثين سنة بالمسجد يا دكتور، وغالب وقتي أنشغل بشيء مستبد

وملازم لتفكيري، وهو أنني أخاف أن أموت خارجَ المسجد بعد كل تلك السنين، لذلك حسدتُك وما كنت أتوقع أن بداخلي حسدا ولو قليلا إلا في هذا الموقف، تذكرتُ قول أصحاب النبي محمد ﷺ لما نزلت الآية (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) في سورة آل عمران، قالوا: لم نكن نعرف أن بيننا من يريد الدنيا لولا هذه الآية.

سبحان الله يا دكتور، مهما كنا في خير لكن تأبى طبيعتنا البشرية إلا أن تستدعي شيئا من النقص من قاع النفس الأمارة بالسوء.

تكلمنا قليلا وضحكت معه مجاملة لكنني قلت في نفسي: هؤلاء الشيوخ كيف يفكرون؟!، لقد كنت على مقربة من الموت وهم يحسدونني على موتي!.

لكن المهم أنني واظبت على الصلاة لمدة شهرين، ثم عدتُ لما كنت عليه من الكسل وعدم الاهتمام، في تلك الأثناء صرَّح الوزير بوجوب غلق المساجد كإجراءات احترازية للحد من الفيروس الجائح (كورونا).، وفكرتُ لماذا لم يَخرج الوزير بتصريح يوجب فيه غلق المسجد لئلا يموت فيه أحد كي لا يحسده الشيوخ على خاتمته، أليس الحسد حراما أيضا؟!، وحين استغرقت في التفكير تمنيت أن يكون القرار هو منع الأذان؛ لأن رجلين تقاتلا بساحة المسجد ذات مرة، وأبرح كلٌ منهما الآخر ضربا؛ لأن كلا منهما يريد أن يؤذن، يقول الأول: أنا من فتح المسجد مبكرا.، ويقول الثاني: وأنا من تبرعتُ بماكينة الصوت.

وبعد علقة ساخنة كافأ كل منهما الآخر بها على طموحه، إلا وجد الناس واحدا منهما يقوم تجاه المنبر ليخلع الأسلاك ويحمل الماكينة على كتفه ويمضي بها تجاه بيته، والكل ينظر إليه في تعجب واندهاش، ليعود إليهم في صلاة العشاء بوجه غير الوجه الذي جاءهم به في صلاة المغرب، لقد حلق لحيتَه ووضعها في قرطاس من ورق، ووقف على باب المسجد غاضبا بين الأذان والإقامة وقال بأعلى صوته: الذي بيني وبينكم هذه.، وأشار للقرطاس بيده، ثم طوحه بطول ذراعِه بالمسجد ومضى.، الحنق والغضب يفعل بالإنسان الكثير، قد يكون في ردود أفعاله غير واع، ثم بعد حين يتذكر ذلك فيشعر بالخزي والأسف من نفسه، ويتساءل: كيف فعلتُ ذلك بكل حماقة؟!

هكذا كان يفعل بي الضجر كثيرا، ولا أخفيكم فأنا شخص غريب الأطوار لا أفهم كثيرا من طباعي وسلوكياتي، فقط كل ما أفهمه هو أنني أود عيشا هانئا وتبا للعالم، لا أمتن لهذا العالم الذي يميل مع ريح الخراب بشيء، إلا أنه ترك لي عقلي حرا، وعلى أي حال، إنني قد تحولت فجأة لشخص آخر، تخالجني بعض مشاعر سيئة جراء ما عشته من حياة سيئة في الخمس عشرة سنة الأولى من حياتي، فلقد كانت نشأتي بين أبوين بسيطين جدا، فقيرين، لا حول ولا قوة لهما في مجابهة مشاكل الحياة، سيما مشاكل العائلة الأم، فوالدي واحد من ست أشقاء يعيشون ببيت واحد، كل منهم يسكن بحجرة، هذا في بدايات زواجه من أمي الريفية التي تطلعت

بزواجها من والدي أنها ستفارق الريف وتتجه نحو المدينة، حلم فتيات تلك المرحلة الزمنية وقتها، ووالدي موظف بسيط، مدرس في المرحلة الابتدائية، وله أيضا تاريخه الاجتماعي الأنكى حالا مني، على الأقل حين وعيت للحياة كنا نسكن بدار بالأجرة، هذا بعد رحلة كفاح استطاع والدي فيها أن يترك صخب العائلة وفوضى حريمها مع بعضهن ليفر بعيدا ولو للإيجار، الأعباء كثرت والحياة اشتدت وكأنها ضريبة للخصوصية، وبدأتْ رحلة من اللا راحة من وجه آخر عوضا عن اللا راحة في بيت العائلة، كثيرا ما كنت أشاهد مشاجراتهم، تقول له أمي بسخط:

منذ تزوجتك إلا وقد فقدتُ سعادتي التي كنت أرتع فيها.

فيقول لها بصلف: إن لم تعجبك حياتي فاذهبي لبيت أبيك بالقرية أيتها الفلاحة.

فتقول وقد آلمها الحزن: القرية أفضل من هذا العيش وسط صخب عائلتك، عائلتي ودودة لا تتصنع الخلافات كعائلتك التي تبدو كالغجر.

ينفعل والدي فيصفعها، تبكي بشدة، تبكي ساعات في حجرتها، كنت أتألم لأجلها، شقيقتي الصغيرة تبكي لبكائها حتى تنام في حجرها، وأنا أشعر بالغضب والحنق، بينما الأطفال بالخارج يلعبون الكرة، أتوق للعب معهم، لكن والدي كان يحرج عليَّ ذلك، وما كنت أخرج إلا بصحبته للنادي القريب الممل، والذي لا روح فيه وليس كروح شارعنا المليء بالعفوية والبساطة، وأتذكر يوم أن تمردتُ وخرجتُ للعب مع الأطفال ساعةً قبل عودته، كان

يوما مظلما، فلما عاد نهرني وضربني علقة ساخنة كدت أن أموت بيده، وأمي تصرخ بأعلى صوتها، ليأتي الجيران ويدقون على الباب بقوة وهم يقولون بصوت واحد: افتح الباب يا طنطاوي، الولد سيموت بيدك حرام عليك.

كنت مرعوبا إذ ظننت فعلا أنني سأموت وأترك أمي تقاسي من بعدي، يالها من طفولة افتقدتُ فيها للدفء، وتربيتُ فيها بالعصا، الحسنة الكبرى من تلك الطريقة في تربيتي هي أنني دخلتُ الكُلية، وشقيقي كذلك التحق بكلية آداب، بينما غالبية الشباب في منطقتنا ينهون دراستهم بالتعليم المتوسط، ويذهبون لِتَعلُم صنعة، ولكن والدي لأنه مدرسٌ لم يُرِد لي ولأخي غير الكلية، بينما أختي تزوجت بعد الثانوية العامة، ولذكائي أرادني والدي أن أكون مختلفا، ولقد كنت ذكيا مثله، ساعدني ذلك على تحقيق هدف والدي وتخرجت من كلية الصيدلة، بالطبع في المرحلة الثانوية تحسنت حالة والدي المادية قليلا، والسبب أنه استأجر دكانة صغيرة أسفل العقار الذي كنا نسكن فيه ليبيع البقالة، أمي بالنهار غالبا تبيع بالدكان وتختلس بعض الوقت لتطبخ لنا الغداء، وحين يعود والدي من عمله يأكل وينام ساعتين ليستلم فيها الدكان منها، حياة مليئة بالأحداث التي لا رفاهية فيها، جامدة تماما، والضغوط تلقي بظلالها علينا، يحسدني الناس بتلك المنطقة لأنني صيدلي، ريثما كنت مفتقدا لراحة يشعر بها أقل شباب الحي، أتاني التكليف وصرت موظفا بأجر ضئيل، وكنت أفكر في حياتي التي ستُشبه حياة والدي، يزعجني ذلك بالطبع، وفكرتُ في أنني لن أستسلم للوظيفة مهما كان، عليَّ أن

أفكر في شيء يرفعني في الحياة كي لا تتكرر معي مأساة عائلتي، لولا ما ورثه والدي من بيت العائلة بعد صراع طويل لما كان يستطيع تجهيز شقيقتي للزواج، كانت أمي تقول له: لو لم تسعفنا الظروف في بيع بيت العائلة وتستلم حصتك منها سوف نضطر للاقتراض من البنك، يجب ألا نتسبب في تعطيل الزواج حتى لا يضحك الناس علينا، سيقول الناس بأننا لا نستطيع تجهيز البنت الوحيدة !

في تلك الحياة كثيرة هي المعاني الإنسانية والحياتية يفتقدها المطحونون في تلك الحياة، فكيف لمن التحف الفقر أن يشعر بالدفء؟

وكيف لهؤلاء المشردين أن يدركوا معنى أن للإنسان خصوصية؟

والحياة الصعبة تؤثر على نفسياتنا، تضيع بهجة الحياة ولذتها، بل ربما لم يعي أصحاب تلك الحياة المليئة بالمعاناة أن هناك ما يسمَّى بمتعة الحياة أصلا!، بينما أنا ما عدت أحسب حسابا لشيء، كل ما أفكر فيه في تلك المرحلة هو أن أشعر بوجودي على الحقيقة، ولو أنني عدت للوراء لَمَا كنت سأتخذ قرار الزواج أبدا، كثيرة هي الأفعال التي كنت من الممكن أن أقوم بها لولا أسرتي، ضاعت ذاتيتي، ما عدت أجدني كأنني غائب، أو أراني انعكاسا لمتطلبات تلك الأسرة، بالطبع لم أقصد التنصل من المسئولية، إطلاقا، بل أعتقد أن المسئولية مهما عظمت يجب أن يتخللها بعض من هناءة العيش، هكذا ينبغي أن يكون، فهناك عائلات كبرى في أوساط أخرى تختلف عنا كما يختلف الإنسان عن الشمبانزي، عندهم مسئوليات

يقومون بها، يضحون لأجلها، لكن هذا لا يتعارض مع كونهم بشرا، يذهبون للمصايف في الإجازة الصيفية، يخرجون للتنزه وطلب الطعام اللذيذ في أفخم المطاعم والفنادق، بينما قد ورثتُ من عائلتي العيش كثوْر الساقية، لم يتركوا لي ما يعينُني على الحياة، اللهم إلا وظيفة يحسدُني الناس عليها بسطحية سخيفة، إنها مكانة جيدة في ذاتها لكنها لا تشفع لي أمام الظروف الطاحنة، سيما القرارات التعسفية التي تقلب موازيننا في هذا المجتمع، أعرف أنه ربما يكون كلامي غريبا، والأغرب أن يكون هناك صيدلي يعيش بنفسية رجل بسيط في زقاق تفوح منه رائحة عطنة بحارة شعبية، لكن لا أخفيكم _ وأقسم بالله _ لو كنت شخصا عاديا لاستطعت كما يستطيع هؤلاء التعايش والتكيف، فوضاهم منظمة، ولا منطقيتهم منطقٌ يتماشى مع واقعهم، بينما نشأتي كنشأتهم، لكن طبيعتي مختلفة عنهم، فلا أنا واحد منهم أعيش بينهم، ولا أنا كالمترفين الذين تَربَّوْ في مجتمعات مرفهة بأيديهم ملاعق الذهب والفضة، أو حتى البرونز، أضداد تتصارع بداخلي، مهلكة جدا وأنا متخبط مع ذلك في آتون اليأس والأمل، وأنا أعرف نفسي جيدا،لا أستطيع العيش إلا لو كنت أطمح لشيء ما، وماذا لو طمحت واجتهدت وفعلت ما بوسعي؟، هذه المدينة كلها لا يتحقق فيها طموح، لست متشائما ولا أفهم لماذا أخبركم بهذا وقد عاشه الأكثرية؟!، لكن لا بأس ربما أفضفض معكم...، تذكرتُ فجأة قول أحدهم لما قال لي مرة ناصحا: عليك أن تكافح، فهناك مَن بدأ من الصفر وأصبح كذا وكذا.، قلت له ضاحكا: صحيح، أبدأ

من الصفر لو أنني أملك صفرا من الأساس يا عزيزي، لكن عفوا، إن حالتي تحت الصفر بعدة أصفار، الأفكار والمهارات كثيرة لكن أين المال؟

أنا راتبي بسيط، أعيش بالكفاف، لا أمتلك رفاهية المغامرة براتبي أو بجزء منه، أقول ذلك لأن البعض قد أشار عليَّ أن أقترض من البنك وأفتتح مشروعا، وهذا يصعب عليَّ في واقع لا يفلح فيه الكثير من المشروعات..!، ثم إن البنوك تحصل على مبالغ ضخمة مقابل القرض كفوائد، أحد أقاربي اقترض خمسين ألفا قام بتسديدها ما يقرب من ثمانين ألفا، ومنذ عدة أيام على إحدى الشاشات ظهر شاب يشتكي من البنك الذي يريد أن يحصل على فائدة تصل ل250 ألفا على 500 ألف يقترضها، يطالب هذا الشخص بلا جدوى تخفيف الفوائد، لكن كان الرد من مسئول قام بمداخلة هاتفية أن تلك تعليمات بنوك لا مجال للعب فيها.، لذا فإن افتتاح مشروع ولو ضئيل الحجم بات عسيرا، وبات الأسهل عند الناس وضع أموالهم بالبنك ويعيشون من فوائده، هذا أضمن لهم كما لو كان راتبا إضافيا عن وظيفة لم يقوموا بها، وأضمن لهم من أن يخسروا من مالهم شيئا في أية مشروع، ولأن الدولة تشبهنا تماما في حالة البؤس والفقر فهي تتفنن كعجوز تمد يدها لكل مَن معه مال، حتى أغرتهم بفائدة كبيرة لم نسمع عنها بأي دولة أخرى، فراح الناس يُخرجون أموالهم التي لم نتوقع أرقامها، ظنت الدولة أن هناك المزيد في خزائن شعب تخيلت أنه أغنى منها، ونحن لسنا الدولة ولسنا هؤلاء الذين

يضعون أموالهم بالبنوك، لكن نحن القرابين المقدمة لتلك العملية كي تنجح بلا شك!

لما اتخذت القرار بترك الوظيفة طمعا في بعض الحرية والمال الإضافي كانت مغامرة ليست سهلة، كنت مجنونا في نظر الناس وأقربهم زوجتي "ميادة"، ولكن لما عملتُ بالصيدلية إياها براتب أعلى وتحسنت حياتي قليلا فرحَتْ زوجتي وتماهت في الواقع الجديد وتكيفت.. لكنني لا أخفيكم ندمتُ بعد حين، وإن كان ندما يسيرا سرعان ما تخلصتُ منه، وذلك لما حدث ما حدث من إغلاق الصيديلة، لا أعرف ماذا أفعل الآن؟، ولذا ساءت نفسيتي جدا، الحياة تجبرنا على مالا نتوقعه من قرارات ونتائج، والحياة عاصفة تهبُّ فجأة فتأخذ بطريقها الأضعف، وكثيرون هم، في مرة من المرات استيقظت من نومي عند صلاة المغرب وذهبت للمسجد، قلت في نفسي لابد من وقفة مهمة مع نفسي، وبعد الصلاة جلستُ مع الشيخ نتحدث بعض الوقت، تجاذبنا أطراف الحديث، وحكى الشيخ "عبد المقصود" مكررا لي بأسىً ما يُحزنه من ضياع جلسة الفجر، إذ كان يلتف المصلون حوله للقراءة والذكر والمذاكرة، حتى شروق الشمس، جلسة روحية تجدد طاقة الروح، وتضيء في النفس ما انطفأ فيها بفعل الأحداث الحياتية الصاخبة، ولكن بعد أحداث الثورات التي قيل عنها (الربيع العربي) شدد الأمن على تجمعات الناس بالمساجد، وخرج الوزير يهدد الموظفين بالفصل من وظائفهم، وما جناه الشيخ من كل تلك الأحداث هو ضياع ملتقى الفجر الذي كان بالنسبة

له كل شيء، وبالنسبة للكثيرين هي جولة في حدائق الجنة، ووصفَ الشيخ ثورات (الربيع العربي) بأنها الخريف العربي، فقد سقطت أوراق شجرة الاستقرار في مناحي الحياة بعدها وضاعت عدة بلدان وتخربت شكلا ومضمونا، وما كان الشيخ متحزبا ضمن تلك الأحزاب التي نشأت فجأة لمجرد رؤيتهم بالقرب من كراسي المناصب التي كانوا يلعنونها من قبل هي ومن يجلس عليها، في تلك الأثناء، وبعد ضيق تلاه فرج، الحمد لله، حصلت على عمل جديد في صيدلية بمدخل المدينة مقابل ثلاثمائة جنيه في الساعة، مهلا لا تتسرعوا رجاءً في الحساب، فطبيعة عملي كصيدلي تختلف في حساباتها، الحساب يكون بالساعة المكررة شهريا وليس يوميا، سأشرح لك:

ثلاثمائة جنيه مقابل الساعة أي لو كان ال(شيفت) ثمان ساعات فهذا مكرر كل يوم بالطبع، كل يوم سأذهب للعمل، فيكون الناتج 2400 جنيه في الشهر، أراك شعرت بالإحباط أليس كذلك؟، أعتقد بأنك ظننت أن كل ساعة في خلال الشهر بمقابل ثلاثمائة جنيه؟، أنت مسكين، منذ عدة سنوات قريبة كان هناك من يتقاضى أكثر من ذلك بكثير، الآن مع تدفق أعداد الصيادلة على السوق بما يزيد عن حاجة المجتمع جعل هناك خللا، ولك أن تتخيل أن بالمعدل العالمي يكون من 6 إلى 9 صيادلة لكل عشرة آلاف مواطن هذا معيار جيد، ولكن حاليا يزيد العدد ويفوق أربعة أضعاف هذا المعدل، حيث 23 صيدلي لكل عشرة آلاف مواطن، ناهيك عن ما تضخه الجامعات الخاصة لهذا التخصص، وأعداد الصيدليات، وكم ألفا منها

مملوكا لغير صيادلة، ناهيك عن المشكلات الأخرى، لا أريد أن أحكي لك وأغوص فيما يشعرك بالملل أكثر من هذا، وسامحني لقد أطلتُ عليك لكن لا بأس، سأتركك بعض الوقت، لكن لا زال هناك شيء غريب وهو أنه لم يَعرض عليَّ أحدٌ من أصحاب المال أن يفتتح صيدلية بترخيص يحمل اسمي مقابل مبلغا أو راتبا، سمعت عن هذا كثيرا أيام دراستي، ويحدث بالطبع، لكنني قليل الحظ، ربما لأن بيئتي البسيطة لا أحد يطمح فيها لفعل هذا العمل مثل المجتمعات الراقية الأكثر رفاهية، حتى وظيفتي التي حصلت عليها كانت بوحدة صحية بقرية نائية، ألاقي كل معاناة في الشتاء حتى أصل، وما انتقلت للمستشفى العام إلا بعد سنتين من تكليفي قضيتها بأكثر من مكان، شعرت بقلق، ولذا طلبت نقلي ولم أحصل على ذلك، وقد كنت مستعدا أن أتقبل فكرة رجوعي لأول وحدة صحية عملت بها، وسبحان الله رغم أنني كنت مترددا في استقالتي من الوظيفة حينها إلا أنني بعدما وجدت زملائي في أحداث جائحة (كورونا) ومن قَبل في مبادرة (مئة مليون صحة) قلت الحمد لله الذي عافاني، لا منطقية في فرض المعاناة باسم العمل والرسالة، لا يمكن أن نُحَمِّل القيمة والرسالة فشلنَا وسوء إدارتنا..!، هذا ما كنت أراه وأفهمه، لم أكن أطيق الاستغراق في مثل تلك التفاصيل ولا الاقتراب منها سيما لا تغيير، أنا أحب عملي، وأحب أن يكون كل شيء على ما يرام، نعم العمل لا يخلو من بعض المتاعب المنطقية التي تفرضها الظروف والأحداث فنحن لا شك نتداخل مع الطبيعة والناس وأشياء أخرى لها تأثير سلطوي،

المتاعب كثيرة لكننا نسعى للحد منها وحلها والقضاء عليها، أما أن تكون مسئولا فتقرر العبثية والفوضى فلا يقبل ذلك عاقل، لا منطق يقبل هذا أبدا، اللهم إلا الحمقى الذين لا يفهمون ويخوضون مع الخائضين، إنني لا أدَّعي الصلاح المُطلق، ربما كنت مقصرا في كثير ويجانبني الصواب في كثير، لكن ذنوبنا الخاصة لا يجب أن نعمل على أن تتعدى الآخرين فتؤثر فيهم وعليهم في حياتهم، فلماذا أكون سببا في قتل شخص أو تكدير حياته والتضييق عليه؟، هل لأنني صاحب سلطة في عملي على هذا الإنسان؟، ولأنه مريض يدفع الهلاك عنه بالمجيء إليَّ؟، فبدلا من أن أواسيه ببشاشة وجه وأمنحه ما يريد من علاج أقوم بمجاملة المرض على حسابه بأن أختلق المعضلات؟!، أعتقد هذا هراء وظلم.، لكن لا أحد يساعدنا على أن نكون طيبين، الحركة حولنا منسجمة كي توقعنا في شَرَك الشر، لقد أصبحتُ مختلفا عما ذي قبل في أفكاري التي تباغتني فجأة، أفكار غريبة لا تنذر بخير لكنها تغشاني كحالة لا إرادية، أنا متمرد كثيرا لكني لا أعرف كيف أستفيد من ذلك إلا المزيد من الضجر، ومضطرب أبحث عن استقرار غير أن اضطرابي لم يعد يجدي معه أي استقرار وإن أتى، حتى تلك المنطقة الشعبية التي أعيش فيها مليئة بالصخب والفوضى والإزعاج، بت أكره العيش فيها لكن لا بديل عندي، كثيرا ما يوقظني صياح الأطفال بالشارع كما لو كانت كارثة قد حدثت، ثم حين أنهض منزعجا وقلبي ينتفض لا أجد سوى لعب عيال سخيف، السخافة تحيط بي، كما تحيط بي في ذلك المكان الكثير

من المقززات، لو حدثتكم عن مشاجرات نساء الحي وما يصدر عنهن من ألفاظ وسلوكيات لتعجبتم، ما الذي يجبرني على السكن بينهم؟!، لكن أن تقيم بين ما لا تألفه شاق جدا على النفس، لكنك مضطر ومجبر أحيانا للتعايش مع ما لا ترضاه، ارتفعت الإيجارات بشكل رهيب لا يناسب دخول الناس، تخيلوا أن يكون أجري ثلاثة آلاف بينما الشقة الإيجار بألف ونصف، كيف أعيش بألف ونصف متبقية؟، هذه فوضى، وكل صاحب بيت يريد أن يعيش مَلِكا من الإيجارات دون مراعاة للإنسانية أبدا، وليس متاحا الآن أن يبيع أحدنا بيته أو شقته، الحياة خانقة قميئة هنا، الظروف ضاغطة، لذا يجب أن تُحَل المعضلة بأقرب وقت قبل تفاقم الأزمات، أو علينا أن نموت هربا من ضغطها العنيف.

3

دعكم من كلام الدكتور عن الوظيفة فهي بالنسبة لي صمام أمان العيش في ذلك الواقع المتقلب كموج البحر، رغم أنها تحبس حريتي، لكن ما جدوى حريةٍ مع عدم الاستقرار كمن يعيش على كف عفريت؟، وقناعتي الشخصية هي أن من السفاهة ترك الوظيفة في واقع سريع الانهيارات في مناحي العيش، ممتلئ بالندوب والتشوهات، والذي ينظر _ بلا تمعن حتى _ يدرك أن في فترة وجيزة من الزمن حدثت انتقالات رهيبة في المجتمع، فأصبح الذي في الأمام في الخلف، ومن كان في الخلف رجع للخلف الذي خلفه، لم يتقدم من الخلف إلا الفسدة أيا كانت دوائر عملهم الإفسادية، واعتباطا حتى نخرج من التعميم القبيح فإن أيضا من حالفهم الحظ ممن حققوا مكاسب اجتماعية غالبهم بالحظ، والحظ عدو المنطق، لقد سيطر الأغبياء على الحياة برمتها وأصبح لا وجود حقيقي للأذكياء إلا في سطحية اللفظ بعيدا عن عمق الدلالة، يموتون فلا يبقى منهم سوى كلماتهم المأثورة وشعاراتهم فحسب، وعن الواقع العملي والفعلي فهو نتاج فكر وسلوك نبعَ من مشكاة السطحية الأصلية غير التقليد..!، لست مبالغا، فمنذ ثورات الربيع العربي على سبيل المثال إلا وقد تغيرت الخريطة السياسية والاجتماعية في مجتمعاتنا، مجموعة من الأحداث الرهيبة أتت مثل كوارث طبيعية ضربت بالمجتمعات وهزتها بعنف، ربما خلفت ثمرات في مجتمعات مجاورة، ربما حتى في مجتمعنا، فلا شك في طُرُق الجحيم توجد بوادرحُسن

نية، ولكن لم يكن هذا دليلا على حسن الفعل أو النتيجة بالطبع.. أعود لنفسي، فعلى الرغم من كوني تخرجت من كلية التجارة إلا أنني اغتنمت الفرصة وقبضت عليها بأسناني، فرصة الوظيفة، الآن أنا زوج ولي ثلاث أبناء، أعيش في بيت والدي الذي رحل للعالم الآخر وتركَه لي أنا وشقيقتيَّ اللتين تزوجتا وذهبت كل منهما لبيت زوجها، نتوادد ونتواصل، ونلتقي ونتزاور كل حين لا شك، لهن نصف البيت ميراثا، وأعيش أنا في نصفه الذي يوجد طالما سكتن عن حقّهن فيه، ولا أخفيكم، لو حدث وطالبنني بحقهن من البيت فلن تنفعني حصّتي من المال، دعوني أشرح لكم:

البيت في منطقة شعبية، طابقين اثنين على مساحة ستين مترا، أسكن بالطابق الثاني الذي جهّزتُه في عدة سنوات من خلال الجمعيات التي كنت أشارك فيها مع عدد من أهل المنطقة، في الحقيقة لولا موضوع الجمعيات في بيئتي التي أعيش فيها لما استطاع الكثيرون فعل الكثير من المهام، تشطيب الشقة للزواج أو شراء الأثاث، أو تزويج البنات، أو ربما عملية جراحية لأحدهم.. وغير ذلك، وكذلك بيع التقسيط.، لا أريد تشتيتكم في تفاصيل كثيرة، أعود للبيت وقصته، سعر البيت ستمائة ألف جنيه، حصتي النصف، ولكل من شقيقتيَّ مئة وخمسين ألفا، لا أخفيكم سرا منذ سنة وهناك إرهاصات من كلام مُغلَّف يقال على حياء تلميحا لبيع البيت، بالطبع كي تحصل كل من شقيقتيَّ على حقها، هذا يزعجني جدا لشدة ما يجعلني

أفكر كثيرا، وأقول لزوجتي بأن أختي "هناء" هي أول من تحتاج لحقها، وأشرح لها من باب الفضفضة قائلا:

أنت كما تعرفين زوج "هناء" عصفت به الظروف التي لا دخل له فيها، الركود الاقتصادي وأثره على ارتفاع الأسعار وأشياء كثيرة تفلق المرارة، الآن حياتهم ليست مستقرة كما السابق، وسمعتُ منها أن زوجها يريد شراء سيارة ليعمل عليها تحت الطلب، أعرف أنها تلمح لي وأنا لا كلام عندي لأقوله، هو حقّها على أية حال.

قالت زوجتي: يمكنها الاستفادة من مال زوج أختها وتقنعهم بذلك بدلا من وضع المال في البنوك والعيش من مال الربح الحرام؟

قلت: حرام أو حلال لا يعنينا، ثم هناك من الشيوخ من يحللها، وأرى أننا في واقعنا مضطرون لأي شيء، قولي لي بالله عليك يا "صباح"، أليس من الأمان وضع المال بالبنك أفضل من الرهان عليه في سيارة لو حدث لها شيء _ لا قدر الله _ يضيع المال معها؟، ثم ماذا يعني ما ستوفره سيارة تحت الطلب؟، الحال معروف، ولي أصدقاء لهم تجارب في هذا العمل وفشلوا، لأن عملا مرهونا بطلب الناس لا أمان فيه، المهم أن "هناء" حرة، وهذا حقها حتى لو أخذته لتتنزه به في رحلة هنا أو هناك، لكن لو بِيع البيتُ ستطلب "وفاء" حقها أيضا بالطبع، حتى وإن كانت أيسرَ ماديا مني ومن "هناء".

"وفاء" هي الأكبر عمرا مني ومن "هناء"، شرهة من ناحية المال جدا، وزوجها الحاج "عبد الستار حامد" إسم على علم، تاجر عقارات وسمسار

كبير بالمدينة، رجل ذكي جدا، إستطاع أن يبيع كل ما كان بحوزته من الأراضي والبيوت التي كان قد اشتراها للتجارة، أتذَّكر يوم أن قال لي ذات مرة: العقارات في السنوات القادمة ستتعرض لركود رهيب يا احمد، لو كنت بتفكر في بيع البيت توكل على الله ؟.، لكني حولت الموضوع دون أن أجيبه متعمدا، لكنه قرر وباع ما بحوزته مبكرا أول ما شعر بالخطر يقترب من السوق، وجمع أمواله ووضعها في البنك.

قالت لي زوجتي: ماذا لو اضطررنا لبيع البيت؟

قلت: الله أعلم ماذا سيحدث؟!

قالت: سيكون نصيبك ثلاثمائة ألف، يمكن حينها أن نسكن بالأجرة مثل كثيرين، وربك هو الرزاق، فلم يمت هؤلاء الذين يسكنون بالأجرة يا بو مريم...

قاطعتها: ومن قال لك أن المستأجرين لا يموتون يا صباح؟، إنهم يموتون من بعد منتصف الشهر من التفكير في الإيجار والأقساط والجمعيات والفواتير والدروس و...، يموتون ألف مرة، ثم أنا راتبي ثلاثة آلاف لا تكفينا !

قاطعتني: نفعل مثل زوج "وفاء" أختك، نضع المال بالبنك، بالعكس سوف يسدد ربحُ المال الإيجارَ وربما يفيض، ومع راتبك سوف نكون على ما يرام.

حولت وجهي نحوها باستغراب وقلت: أليست أرباح البنوك حراما كما قلتِ منذ قليل يا صباح؟!

زاغ بصرها وتهتهت وقالت: نحن نحن مضطرون، لو لم نفعل هذا لن نستطيع العيش، وأخشى لو غامرنا بالمال في مشروع ما أن نخسره، فهذا المال هو كل ما نتركه لعيالنا، يكفي أنهم حين يكبرون لم يكن لهم بيت، سيسكنون بالأجرة، سيعانون مثلنا تماما، هذا يؤرقني جدا!

: آه يا صباح!، الحياة باتت مليئة بالصخب والمعاناة، كان الله في عون من لا وظيفة لهم، إنني أتساءل كيف يعيش العمال والحرفيون وأرزاقهم متعلقة باستدعاء الناس لهم لإصلاح ما فسد في بيوتهم وأثاثهم وخلاف ذلك؟، كيف لو لم يستدعهم أحد لأيام طويلة؟ كيف يأكلون يا "صباح" !

: الله خلقنا ولم يهملنا، لكن هل مات أحد في بلدتنا من الجوع؟، الكل يعاني ويزحف لكن لا بأس فهو لا زال يتحرك.

: ما معنى أنه لا زال يتحرك؟ اسكتي يا صباح اسكتي، ليس الجوع فقط ما يقتل، بل القهر والعجز والعوَز كل هذا يقتل، بالعكس، من يموت بمفارقة الحياة أهون من هذا الذي يموت لأنه على قيد الحياة، الموت

المعنوي أقسى وأشد!، والأقسى أن يُرغم الإنسان على العيش في حياة تسير على هذا النحو لهو أشد من الموت.

: عندك حق، الموت الذي ينقل الناس لجوار الرب الرحيم خير من جوار الفسدة الحمقى باسم الحياة !

: أحيانا أتساءل وأغرق في التساؤل، لماذا نفسد الحياة على بعضنا، لماذا علينا أن نعيش في العتمة ونحن يمكننا أن نحمل بأيدينا مصابيح نضيء بها لأنفسنا وللآخر ؟!

: المصباح يكلفنا كثيرا، سيرفع المسئولون سعر الكهرباء مجددا كعادتهم.

: حقا، سيغرقوننا بالفواتير، اممم، لكن يجب أن نعيش، هل نعيش على ضوء شمعة؟!، أو...(صمتت برهة) واستأنفت بسخرية: لنكن نحن الشمعة التي تحترق، لكن ليس من أجل أحد، شمعة تحترق فحسب، كما يحترق كل شيء دون جدوى.!

: أو شمعة تحترق لأجل المسئولين والطبقة العليا.

كنت ممن يعارض قرار صديقي الدكتور"هاني" بتقديم استقالته من الوظيفة منذ سنوات مضت، رغم أن الأوضاع حينها كانت أفضل نسبيا،

الانهيارات تأتي سريعا من عام لآخر، الدكتور شخصيته عجيبة، رغم أنه يحمل روح طفل، أعتقد نشأته التي نشأها منذ صغره أصابته ببعض النظرة السطحية للحياة، لأنه هرب من منطقة لا تروق له متمردا، لكن نحو المجهول، وهذا غباء بنظري، الواحد منا يجب ألا يرفع رجله من الوحل ليضعها فيما هو أوحل، بل يتحسس مكانا يابسا، ولو حجرا يقربه من اليابسة، لكن على الأقل هو أفضل من كثيرين، هو دكتور في نظر الناس، يعني له مكانة اجتماعية جيدة، بخلاف الحرفيين الذين يبدون في ذلك الواقع كمجموعة من الأسماك الصغيرة داخل بركة ماء تتضاءل شيئا فشيئا، وكلما تضاءلت دهس بعضهم بعضا، مع كل أتمنى له حياة طيبة، بل وللجميع، أتذكر يوم أن قلت له منفعلا ذات مرة: أنا على صواب، يا "هاني"، وكن جريئا واعترف بخطئك لَما تركت وظيفتك الحكومية.

قال ساخرا: وظيفتي التي لا أتقاضى منها ما يحقق عيشا كريما؟!، لا تؤاخذني يا صاحبي، أنت كمن يستمتع بالاغتصاب لأنه لم يستطع مقاومته يا صديقي الموظف.

: أي اغتصاب تقصد يا حضرة الدكتور؟، بل أنت مَن يغتصبك عقلك، وتغتصبك قراراتك الانفعالية، كما تغتصبك الظروف الآن، هل تنكر؟.

قال منفعلا: أراك تتكلم وكأنك "بيل جيتس" يا أخي!، حالي كحالك، راتبك الذي تظن بأنه حبلك الموصول بالسماء تعرج من خلاله لِقمة السعادة هو هو نفس ما أحصل عليه الآن في صيدلية أعمل بها، ما الفرق أيها الواهم؟

: الفرق هو الاستقرار يا دكتور.

: استقرار!، هاهاها، ألم تسمع بأن الدولة تفكر في تقليص عدد الموظفين؟، هل مع ذلك تشعر بالاستقرار؟، حتى هؤلاء الذي يعملون منذ عشرين وثلاثين سنة بالعقود في هيئات حكومية وخاصة، لا يشعرون بالاستقرار بعد تسريح الكثيرين منهم، زوج أختك "هناء" أقرب مثال لك، هل لولا ضياع عمله كانت ستضطرك شقيقتك لبيع البيت كي تشتري سيارة لزوجها للعمل؟، الاستقرار كلمة ميتافيزيقية حينما نسقطها على واقعنا وما نحن فيه، الذبابة حين تطير في غرفة المسئولين تُحدث أعاصير عندنا، نحن بالأسفل وهذه جريمة.

: لكن هذا مجرد كلام يا دكتور، فرقعات كلامية في الهواء لا تعرف مصدرها، الناس يروجون الإشاعات ويهولون، وقد خرج الوزير ينفي إشاعة أن الدولة ستسرح عددا من الموظفين، ويقول بأنها مجرد شائعات مغرضة.

:اسمع، أنا لا أستبعد أي شيء يحدث، القرارات يسبقها مثل هذا السلوك كثيرا، كلام يخرج لا تعرف من أين فينتشر بين الناس بسرعة البرق في عالم السوشيال ميديا، ثم يخرج مسئول ينفي، وبعد حين تجد جزءا من

الأمر قد تحقق على حين غفلة، ويتلقاه الناس بلا شعور، ثم يأخذون في التماهي، الناس يتماهون في آلامهم لو لم يجدوا لها بديلا.

: أخبرني بصدق يا صديقي، هل لو دُعيت لوظيفتك الآن سترفض؟

: لن أُدعَى، قل كلاما منطقيا، أمَا سمعت بالصيادلة الذين أحرقوا شهاداتهم غضبا لعدم حصولهم على التكليف (حقهم في التوظيف)، في حين أن الوزير اختار جزءا من الخريجين فقط على خلفية تقديرهم بالشهادات، رغم أن هذا مخالف للقانون الذي يوجب التكليف للجميع بلا استثناء، هو تكليف وليس مسابقة على وظيفة !، ثم بعد هذا تفترض فرضا غير منطقي!

: بالطبع فلنفترض جدلا يعني، وانسَ الواقع قليلا، أخبرني عما بداخلك بصراحة؟

: بصراحة كنت سأقبل، وليس هذا اعتراف بأنني كنت مخطئا في قراري بترك الوظيفة وأنني الآن أبدي ندمي بين يديك، لا، بل الواقع قد تغير وتبدل، ومن المنطقي جدا أن تتغير نظرتنا للأمور معه، مفاهيمنا يا أستاذ والتي نكونها عن الموضوع تكون طِبقا لوقائع معينة، ومعطيات واضحة، ولو تبدلت وتغيرت تلك المعطيات والوقائع والأسباب فلا شك ستتغير معها بعض مفاهيمنا إذ تتغير معها النتائج، هذا شيء طبيعي جدا، فبالأمس لو رفضتَ أو تركتَ شيئا، ربما اليوم تقبله، بل وتعض عليه بالنواجذ والأسنان، ثم مالي أراك تخلط ما بين تركي لوظيفتي وتركي لتخصصي؟، لماذا تخلط الأمور كمعتوه؟، ليكن في علمك أنني تركت وظيفتي ولا زلت أعمل

بتخصصي، هل تدرك ذلك؟، الناس لا يقولون عني موظفا وإنما يقولون عني (دكتور) يا "بيل جيتس" زمانك، حتى بعدما تركت الوظيفة لا زلت الدكتور هاني.

: أنت مكابر يا صديقي، مكابر وتثرثر وتلف وتدور أيضا.

: لا، لست إلا واقعيا غير واهمٍ مثلك بالوظيفة التي تلتهم عمرك من أجل معاش لن يكفي زوجتك بعد موتك، أو لا يكفيك علاجا حين تكبر وتتلف خلايا جسمك وأعصابك، أتعْرِف ما الحسنة الوحيدة فعلا من وراء الوظيفة ؟

: ما هي يا "ابن سينا"؟

: أنت تسخر من كلامي؟، ومع ذلك سأخبرك، إن حسنة الوظيفة هي أنك بعدما تموت _ لا تؤاخذني _ تتزوج زوجتك من شخص آخر بوثيقة عرفية لئلا ينقطع معاشُها لتنفقه على زوجها الجديد، أعتقد سواء كان موظفا أو حرا أو حتى عاطلا فسيكون أحسن منك حالا، هاهاها، إنك تحافظ على الوظيفة الآن لأجل هذا الزوج المستقبلي، كما حدث مع كثيرين.

:غاظتني جدا سماجتك وكلماتك اللاذعة يا دكتور يا محترم، لقد كنتُ أحمقا حينما تكلمت معك فيما يخصك، أنت حرٌ، لتذهب لجهنم لن يعنيني أمرك.

قلت ذلك وانصرفت وكبحت غضبي، وقلت في نفسي ليس لي شأنا به بعد ذلك، وقررت أن أغلق معه الموضوع للأبد، لكن لا أخفي عليكم أن بعضا من كلامه أصابني مثل سهمٍ في قلبي، الواقعية والحقيقة جرحٌ متيبس طالما ابتعدنا عنه قليلا بخداع أنفسنا، ولكن إذا ما اقتربنا من ذلك الجرح أصبناه لينزف ألما مجددا، نظرة صديقي الدكتور فيها جزء كبير من الصواب لكن...، لكن الصواب في واقع خطأ يحملنا فوق طاقاتنا، كما يتحمل هو فوق طاقته من أعباء، لكنني ومع ذلك أفكر، أفكر في أن يومه يمضي كما يمضي يومي، لا فرق إذًا، الوقت لا يُفرّق بين غَنيٍ وفقير أو بين موظف وحر، الوقت يمضي دون أن يعتبر بسَيد أو بصعلوك، العمر يمضي لا شك بسرعة رهيبة، البياض غزا شَعري، أتخيل أحيانا أن أحدا مات بسبب همومه على شيء فاته، أو على شيء لم يملكه، ما جدوى ذلك في حال أن من يمتلك الشيء بذاته يموت لأي سبب!، النفس الممتلكة تفنى، فلماذا نحزن على شيء يفنى؟!، نعم، ينبغي أن نفكر هكذا لترتاح قلوبنا، لنرتاح من كدَر الحياة، لكن..، لكن الأمر لا يخصنا نحن فحسب، بل نحن نهتم لأجل زوجاتنا وأبنائنا، شيءٌ رهيبٌ أن يكون سبب تعاستنا هو التفكير في زوجاتنا وعيالنا، هنا سيتعين علينا أن نفكر بشكل غريب، وهو ألا نتزوج، ألا ننجب، فما جدوى الزواج في عالم يُفقرنا ويضطهدنا بكل الوسائل؟، أعلم أن هذا الكلام قاله غيري كثيرا، لكن..، التافهون يُسطرون بأيديهم مصائر البشر، هذا أمر خطير يجعلنا إن فكرنا فيه باستغراق أن ننتحر كقادة

الجيوش في المعارك كي نموت بشرف، فما جدوى الإنجاب في واقع يزداد بؤسا؟، أفننجب لنعذب عيالنا؟، ندفع بهم للعالم عنوة لنعاني لأجلهم قبل أن يبدؤوا معاناتهم بأنفسهم!، هذه حقيقة، الواحد منا حين يكون على مشارف الموت يُفكر فيمن هو متعلق بهم، يفكر في بيته وعياله وماله وزوجته ومَن هم متعلقون برقبته في الحياة، ربما يدفعه هذا الأمر للجزع وهو على عتبة الآخرة، أما الذي لا شيء يتعلق به يموت مستسلما للموت هاربا من الحياة راضيا، كهؤلاء المهمشين الذين حين يتشاجرون بالحي يهدد أحدُهم الآخر بأنه لا شيء لديه ليبكي عليه، ويحذره من استعداده لارتكاب جريمة بحقه دون تردد، لأنه وحيد بلا شيء يتعلق به، فهو لا يخشى السجن، بل ربما يأويه سجن بأفضل مما يعيشه حرا، الوظيفة استعبادٌ لكنها مسئوليتنا تجاه من يتعلقون بنا، هي المسئولية والتضحية لا شك في نظر البعض، بينما الآخرون كصديقي الدكتور يقول بأن ذلك منتهى السخف، ويقول بأننا إن لم نستطع العيش الكريم فلن نمنحه لعيالنا، فما السر في أن أَضِيع لأجل صغارٍ جلبتُهم للحياة لمجرد ساعة لذة؟، يا ربي هل هي تضحية محمودة أم حماقة نرتكبها جميعا ببرمجة عقلية؟

لكن..، لكن نحن لأجل أعمالنا نتلون كالحرباء بحجة التكيف والتعايش، هل هذا عمل جيد لأجل عمل وظيفي؟، ويصبح العمل المادي محركا للسلوك والأخلاق؟!

الكثير من الناس باتوا منافقين ومتسلقين ووصوليين و.. لأجل الحفاظ على العمل!

أعتقد أن أي عمل يدفعنا لفعل هذا ليس عملا جيدا في قيمته، بل وسيلة لا أخلاقية ابتدعها الناس بدعوى التعايش مع سوء الحياة واضطراباتها..!

4

تحت شجرة الصفصاف على حافة الترعة يدير صاحبنا الحاج "سيد على محمود" ظهره للحقول، يجلس وبيده صِنَّارة يصيد بها السمك الصغير الذي يملأ الترعة، بينما جروٌ صغير يلعب ويجري حوله بين الزروع وينبح في مرح، يُلوح له بيده ليَكُفَّ عن الصخب كي لا يهرب السمك بعيدا، مرت دقائق وهو غارق في الانتظار، مسافرا بذاكرته وخياله بعيدا حتى تقع سمكة كبيرة حمقاء في الفخ، يتذكر أيام أن كان يجلس على شاطئ الخليج العربي مع أصحابه في نهاية التسعينيات يصطاد السمك السردين، ويبتسم حين يتذكر حوارا دار بينه وبين أصدقائه هناك

: سمك السردين له مذاق لذيذ وهو حي، التجميد يفقد السردين كثيرا من هذا المذاق!

: أخبِرني يا صديق هل لا يوجد بمصر سردين صاحي؟، أم لأننا نسكن بمنطقة لا يوجد فيها السردين إلا مجمدا فنحن نعتقد ذلك؟

: لا أعرف، لكن تقريبا هناك سردين صاحي، عندنا بمصر كل أنواع البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات، أعتقد فيها سردين صاحي.

يعود بعقله ويهز رأسه وكأنه يشعر بأسى، كانت الحياة غير الحياة، والواقع غير الواقع، وكل ما كان عليه هو أن يرسل كل شهر بعض المال لأبويه وشقيقاته، أموال الكويت زوَّجَت ثلاث بنات، واشترى قيراطا أيام الرُخص وبناه بتراب الفلوس كما كان يقول دائما متحسرا على الواقع،

يقصد بذلك أنه لم يشعر بوهن التفكير في مسئولياته، فقط يتعب في العمل ويلقى الأجر على قدر مشقته بما يثير بداخله قناعة ورضا، بينما تزويج فتاةٍ الآن أو شراء خمسين مترا أو بنائها صار محط إعجاز يشبه معجزات الأنبياء، ما يجعل الناس ينظرون في دهشة وأفواههم فاغرة، وحدقات أعينهم على اتساعها، يتساءلون عن ماهية تلك الاستطاعة المادية لهذا الإنسان الخارق الذي استطاع شراء بيت أو بناء شقة على سبيل المثال، فهو يبدو لهم نبيا وجَبَ اتبَّاعُه والإيمان به، إنه الهمُّ المضحك، الناس يحسدون من يشتري دجاجة أو كيلوجراما من اللحم، يتخفون من الحسد إن استطاعوا فِعل ذلك ولو لمرة كل عشرين يوما!

يَحكي عن هذا في إحدى المرات ويقول مستعرضا الواقع لأحدهم:

المطارات الآن مغلقة منذ جائحة كورونا، والسفر ليس كما السابق، الآن لو أردت السفر يلزمني أكثر من مئة ألف جنيه كي أحصل على تأشيرة للكويت، وهذا لو باب السفر مفتوح أصلا، وحتى لو سافرتُ فلن أجد السفر كما السابق، الآن أصبح الناس يسافرون لتوفير مصاريف بيوتهم فقط، الناس لا يستطيعون توفير ذلك ببلدهم فتغرَّبوا لأجله، لقد عُدت لبلدي في عام 2006 لأتزوج وكنت قد تخطيت الثلاثين عاما، أمي ووالدي أكلا دماغي بهذا الموضوع كثيرا، كأنني سأصنع المجد، شعرتُ من كلامهما كل مرة نتواصل فيها أن طائرة ستسبقني ويجب اللحاق بها، كل مرة يخبراني بأنني قاربت الثلاثين، تخطيت الثلاثين، حتى أصبحتُ أخشى رقم الثلاثين

كأنه الوَحْش الذي يُقبِل عليه لاعبُ البلاي ستيشن في مرحلة أكثر صعوبة وقت استمتاعه، وبدا الأمر كأنه ينبغي أن أفض بكارة امرأة قبل موتي إذ هو مفتاح الجنة، أو ربما سأنجب لهم رسولا نبيا، سامحهما الله، كل حين أسمع نفس الكلمات:

نريد أن نفرح بك، نريد أن نفرح.

كأن الحزن ألمّ بهم ولا دواء للعودة للفرَح إلا بزواجي وإظهار قدراتي الخارقة مثل شمشون في اعتلاء امرأة!

وأكثر شيء مضحك حالما أفكر فيه هو قولهم:

نريد أن نحمل أطفالك.

بينما العائلة والشارع مليء بالأطفال لو أن هذا سيجعلهم يشعرون بقيامهم بفعل ما، لماذا أطفالي بالذات؟، عبث وخطر أن ننجب الأطفال فقط بدافع إشباع حاجة نفسية سطحية، من الأسهل التغلب عليها بدلا من إقحام مزيد من الأطفال في هذا العالم!

والله لولا هذا الزواج لما عدتُ أبدا، ولظللت بقية حياتي في عملي بالمصنع الذي كنت أعمل فيه، سيما لقد وصلت لمنزلة جيدة، تخطيتُ فيها جهدي العضلي وبدأ ينحصر عملي في المراقبة والتوجيه فحسب، هذا بعد خبرة سنوات ذقت فيها الويلات، لكن ما كان يصبرني ويحفزني هو فَرْقُ العملات التي كانت تفعل الكثير والكثير بوقت قليل، هل تعلمون أن راتبي لشهر واحد بالكويت كان يعادل راتب موظف عادي بمصر ستة أشهر؟!،

لقد أقمت بالكويت ثمان سنوات حصلت فيها على مال وفير، ولكن حينما عدت وتزوجت وكان البيت بالفعل قد تم بناؤه، قعدت عن السفر، ذقت حلاوة المرأة ولهيبِ حضنها الذي يلين الحديد القاسي، ويصهر جبال الجليد الباردة بداخلنا بفعل الأيام والوقائع، ظللت ثلاث سنوات لم أنجب فيها، ما كان يعنيني، غير أن والدتي كانت تنشغل بالأمر، تقول لي: إما أنك لست برجل وإما هي ليست امرأة، فرجل وامرأة يعني حَمل وخِلفة يا ابن الكلب!.

رحمك الله يا أمي، كلمات أمي كانت تستفزني، وما كنت أنشغل بغليظ كلماتها لي بقدر انشغالي بحزن زوجتي التي كانت تسمع كلماتها اللاذعة وتبكي، وعلى الرغم من أن كل شقيقاتي أنجبن أطفالا إلا أن موضوعي أنا بالذات يظل أمرا بالغ الأهمية لأمي، بينما لم يكن والدي منشغلا بهذا الموضوع مثلها، في تلك الفترة كنتُ قد هيأت دكانةً أسفل البيت لأبيع فيها الأعلاف والباقوليات والحبوب عموما، وأوزع بسعر الجملة على المحلات الصغيرة، ومع الوقت تعاملتُ مع مزارع الدواجن وأصبحتُ أشتري منهم الكتاكيت والبيض، أبيع البيض للمحلات الصغيرة، والكتاكيت يشتريها نساء المنطقة غالبا، فتربية الدجاج كانت توفر عليهم الكثير من الأعباء.، الآن أتذكر وأقارن الأسعار والبيع والشراء بالسابق، فجلبت ورقة وقلم وأخذت أحسبها حسبة تاجر وكتبت:

العشرين كتكوتا بثلاثين جنيها، هذا في 2008، وكان جِوال العلف يكفي عشرة منهم لمدة تتراوح بين ثلاثين إلى أربعين يوما، تلك المدة التي يكون فيها

وزن الدجاجة يتراوح بين كيلو ونصف إلى اثنين ونصف كيلو، وسعر الشيكارة 100 جنيه، يعني 330 جنيها يصبح لدى البيت ثلاثين دجاجة بوزن متوسط 60 كيلو من اللحم، أضف سبعين جنيها أدوية ومصاريف عارضة أقصى تقدير وبكرم واسع، يعني 400 جنيه، يعني ب400 جنيه تظل الأسرة المكونة من أربع أشخاص أو خمسة يأكلون كل يوم كيلوين من الدجاج لمدة شهر، بالطبع لن يأكلوا كل يوم دجاجا لكن هذا لزوم الحساب فقط، ثم لك أن تعلم أن ثمن الكيلو بالمحلات وقتها كان متوسطه 10 جنيهات، يعني ال60 كجم يساوي 600 جنيها، وأيضا لك أن تعلم بأن 400 جنيه هي أجر أحدهم في أربعة أيام، هذا إن كان حرفيا وليس موظفا، فالموظف يحصل على هذا الرقم في ثلث شهر تقريبا، لذا كان الحرفيون في هذا الوقت أفضل حالا من الموظفين سيما أصحاب المهن المعمارية التي غالب سكان المنطقة التي أسكن فيها يعملون بها، ولهذه الحسبة البسيطة ما كان يحمل الناس هَم عشائهم، فربما بعشرة جنيهات يشترون الأرز والخضار فقط كل يوم، والتموين (الدعم) يكفيهم الزيت والسكر وبعض السلع، أفضل ما في حياتهم ويسبب لهم الاطمئنان هو وجود خبز مدعم، الأسرة تحصل على متوسط عشرين رغيفا كل يوم وهذا كاف لأن يضمنوا ألا يموت أحد من الجوع، فمن السهل جدا إعداد وجبة سريعة غير مكلفة، لكن تخيل لو أن الحكومة قامت بتنفيذ ما يقال بأنها تدرسه وهو رفع الدعم عن الخبز!، ستحتاج الأسرة كل شهر بمتوسط خمسمائة جنيه خبزا فقط، بينما الدعم يوفر ذلك، لن

يصبر الناس أبدا لأنهم في تلك الحالة سيوقنون أنهم سيموتون جوعا بالمعنى الحَرفي..!

البيت الذي كان يعتمد على تربية الدجاج كان يكفيه عشرين جنيها كمصروف يومي، فلك أن تتخيل الفائض الذي كان في بيوت هؤلاء من المال، هذا للموظف والحرفي والتاجر وكل الأطياف، لقد ربحتُ الكثير في تلك المرحلة بكل صراحة، وكنت لا أشعر بندمي على ترك السفر وقتها بل العكس، لكن عصفت بالحياة عواصف وجدنا بعدها عاليها سافلها، ما عاد البيع والشراء كما السابق، وبالتالي قل الربح كثيرا، وأصبحت تربية الدجاج في فترة ما أكثر كَلَفةً من شرائها، فشراء دجاجة تزن كيلوين يكلف أربعين جنيها، وأضف لوازمها مع غلاء الأسعار...، ومع ركود العمل وحاجة الناس و...، وأشياء أخرى جعلت الناس في ضيق من العيش، كذلك غلاء الأعلاف وأسبابه، وأصبح الحِرفيُّ في منطقتي أجرُ يومِه يصل لمئة وعشرين جنيها لا تكفي شيئا، ولابد له من عمل متواصل وإلا سوف تقتله الحاجة.. أغلقتُ محلي لمّا وجدته يقيدني لساعات دون مقابل يستحق ذلك التقييد كله، واستسلمت لواقعي بلا عيال، و لمّا علِمَتْ زوجتي بأنني عقيمٌ لن أنجب أبدا، تغيرتْ معاملتُها، ومع تراكم المكبوتات انفجرت بالخلافات التي كانت تحزنني ليل نهار وتضغط أعصابي، وبعد ضغوط نفسية واجتماعية طلقتُها، ثم بعد حين تزوجتُ من أرملة ذقتُ معها ألذ شعور، إمرأة تعرف معنى أن يكون لها رجُل، لأنها جربت معنى أن يختطف الموتُ زوجا من زوجته وعيالِه فجأة بلا

مقدمات..، عاشت تجربة أن تتمزق خطط حياتها لتجد نفسها أمام صفحات بيضاء يتعين عليها أن تخط فيها مستقبلا جيدا لعيالها، بلا معين ولا أدوات ولا خبرات كافية، كانت أمًّاً لفتاتين، ما بخلتُ عليهما مطلقا وعوضتهما فقدَ أبيهما، وعوضوني فقدي للعيال، وساعدت زوجتي في تزويجهما وأكرمتهم جميعا، حتى نفد مالي فلم أهتم لذلك، فقد كنت مستعدا لبذل أي شيء عندي لأجل تلك الزوجة الحنون، ماتت أمي ولحق بها والدي منذ ست سنوات، والآن لم أحمل هَم شيء سوى نفسي وزوجتي، ربما لو عندي عيال لقتلتني الهموم كأصدقائي وبقية الناس المنشغلين بهموم عيالهم، ربما هذا خير لي ما كنت أعلمه، ولولا السفر لسنوات قضيتُها في الماضي لكنت الآن في الأسفل في زحام الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحُبَت، نعم أغلقت مَحلي وأجَّرْتُ شقتين في بيتي لمستأجريْن من المنطقة، ما كان يكفيني أجر السكن أنا وزوجتي، ومنذ سنتين وأنا أعرض منزلي للبيع بسبعمائة ألف جنيه، رغم أنه يساوي مليونا، ومع ذلك لم أجد له مشتريا، وددت بيعَه لأضع المال بالبنك وأسكن في شقة أنا وزوجتي وننعم بعيش أفضل، سبعمائة ألف ثمن شقة متوسطة في إحدى المدن الجديدة التي تبنيها الحكومة في تلك الأثناء !، الناس لم يزهدوا ولم يكتفوا، وإنما لا مال في أيديهم، ولا عمل أصبح كافيا لسد احتياجاتهم، وحتى بعضَ مَن أعرفهم _ والذين هم من كثير_ بهذا البلد يملكون بيوتا وأراضٍ لم يستطيعوا بيعها

بسبب حالة الركود الحاصلة، ومن ليس معه مال وحتى من معه مال متجمد، صاروا سواء في المعاناة اليومية.

5

الساعة العاشرة مساءً، الهدوء نسبي في الحي على غير عادة، عدا عمال الطابونة والذين أغلبهم من نساء الحي، كذا موظفي شركة المياه والصرف الذين يعملون في دوام ليلي، الطابونة وشركة المياه والصرف بالقرب من سكني الذي أعاني فيه كل يوم، تنطلق المحركات بصفيرها ليلا لنسمع الصوت مع الصمت، لابد أن يظل الموظف يقظا لمراقبة منسوب المياه أثناء عملية التكرير، وإلا فسوف تتداخل مياه الصرف على مياه الشرب، كان يحدث هذا كثيرا حين نفتح الصنبور لنجد ماء أسودا طينيا برائحة كريهة، ما كنا نعرف السبب، حتى أخبرنا أحد الموظفين بذلك، نومة موظف لا يراعي عمله يُكلف الناس صحتَهم، كلما اشتكينا نوم الموظف في مراقبته كلما كثرت مرات اختلاط الماء الوسخ بالماء النظيف، كان الشيخ "عبد المقصود" يتندر بذلك ويقول:

يجب أن نُدَرس الماء المختلط في كتب الفقه وأحكامه للناس هذه الفترة.

المنطقة محاطة بمساحات كبيرة من الحقول من ناحية الطريق السريع، منطقة مكشوفة الظَهر، مما يُسَهّل على اللصوص اختراقَها وتسلق البيوت لممارسة السرقة، سيما مقابر المدينة بالكامل على مرمى البصر خلف تلك المساحات الزراعية، وما بين البيوت والمقابر طريق زراعي كثيف الشجر، يُسَهّل على اللصوص التحرك والاختباء، تستطيعون القول بأنها

تحوي صفات (البؤرة)، وقف أحد رجال المنطقة يوما وسط الشارع وهو يصيح بعدما سُرق عدد ليس بالقليل من البط والأوز وبعض ثيابه المنشورة من أعلى سطح منزله وقال: (عليا الطلاق دي مش عزبة الأمل ولا فيها أي أمل، دي مؤسسة للحرامية!)، من تلك اللحظة أطلق الناس عليها مسمى (المؤسسة)، ومن يومها لصق فيها الاسم، العجيب أن اختلاط مياه الصرف بمياه الشرب قد تكرر لنوم الموظف الذي لا يزال رغم نومه يراقب، الناس في تلك المنطقة يشربون الطين والقذارة، لكن لا جدوى تحملهم على الصبر إذ ربما يتبدل الموظف أو يخرج من وظيفته بأي سبب، إن بالمعاش أو الموت، لكن يوما ما ربما يأتي، لو لم يكُف الموظف عن نومه فسوف يثور عليه أهل المؤسسة، إنّ الحيَّ إن أدرك موته وهو على قيد الحياة يفقد ذاكرتَه وما فيها من معاني، ويتصرف كأنه ميت افتقد للحياة بالفعل، فلا يهتم بأي معنى من معانيها، فلا وطن ولا مجتمع ولا عقل ولا حكمة ولا أي شيء، فقط ينطلق نحو عدميته بسلوكيات من فقدوا العالم، فهل تستطيع تلك الحكومات القاتلة لهم أن تُسكت الموتى؟، أو تعيد إليهم ذاكرتهم المنسية؟!.

.....

في الليل يتجمع الأصدقاء ببيت صاحبهم التاجر، يتناوبون على الشيشة كما يتجاذبون أطراف الحديث، يسأل المعلم "عوض" الشيخَ "عبد المقصود" : قل لي يا مولانا، كيف عرفتَ قصة هذا البيت المهجور؟.

يدور الشيخ بعينه عليهم قبل أن ينطق ويقول: أعتقد الآن لا مجال للسرية ولا التخوين، فنحن جميعا يد واحدة، والبدء في العمل بات قريبا جدا، فقط علينا تجهيز ما يلزمنا وأن نطمئن للخطة الموضوعة، وأنا من ناحيتي كما أخبرتكم سأتولى بقية القصة...

قاطعه "عوض": أيوه لكن عرفت ازاي الحكاية كلها من البداية، ولماذا تطمئن لها بكل ثقة ؟

يحكي الشيخ قائلا: طبعا أنتم تعرفون بأنني معالِجٌ من سنين طويلة، أعالج الناس من الجن والمس والسحر وأرقيهم، هذا العمل لوجه الله طوال السنين الماضية، لذلك أشعر أنه قد آن الأوان ليكرمنا الله ويكافئنا

عوض : القصة إيه يا شيخ عبدالمقصود !

: اصبر يا أخي وما صبرك إلا بالله، لا تكن متعجلا، تعلّم من درس موسى مع الخضر عليهما السلام، واطمئن، سأخبرك بما لم تُحِط به خُبْرا.

ابتسم "عوض" وقال: خلاص يا مولانا، (لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا)

ضحك الجميع لرد "عوض" الغير متوقع، لكنه فهم سبب اندهاشهم، كيف يحفظ الآية ويرد بسرعة بديهة؟، فقال لهم: أنا منذ زمن وكل جمعة أقرأ سورة الكهف حتى حفظتُها.

كان الحاج "سيد" يميل بجذعه ناحية الشيخ ويقول له مازحا:

يعني يا مولانا كلنا أصبحنا "موسى" وأنت وحدك "الخضر"؟

قال الشيخ وهو يبتسم: لا يهم طالما نحن في زمرة المؤمنين، لكن المصيبة أن يخرج من بينكم "فرعون".

قال الدكتور: لا تقلق، "فرعون" ليس هنا بالحي الشعبي ولا في القبو الذي نحن فيه الآن، "فرعون" منشغل بتعبيد الناس له بأرقى مكان بالعاصمة.

الحاج "سيد" يصُبّ الشاي من البرّاد الكهربائي بجانبه على منضدة صغيرة، والموقد مليء بالفحم المشتعل، بينما "أحمد" يضع التبغ على الحجَر ويسأل الشيخ: هل فعلا يا مولانا سيدنا "جبريل" كان يدس الرمل في فم "فرعون" وهو يغرق حتى لا يؤمن بالله؟!

قال الشيخ: "فرعون" لم يخطر بباله ولو للحظة أن يؤمن، لم يكن مجرد مذنب أو عاصٍ لله، أو حتى يتبع دينا آخر لا يريد أن يتركه، بالعكس، كان يزعم بأنه الإله، رغم المعجزات والحجج التي حدثت أمامه، لكن السُلطة أعمته وأعمت بصيرته، لمجرد أن حَكَم مصر ظن أن الشعب يجب أن يعبده من دون الله...، (يمد أحمد يده للشيخ بلاي الشيشة) فيقول له الشيخ: اعط الأصدقاء، كفاية لأن صدري وجعني، أعتقد مقدمات نزلة برد.

قال الدكتور: شفاك الله وعافاك يا مولانا، الجو بدأ يبرد خصوصا الفجر، هكتبلك علاج تلحق به نفسك.

يقول "عوض": أكمل يا مولانا قصة "فرعون" الله يلعنه.

يستأنف الشيخ فيقول: "فرعون" لما قال (آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل) مكنش سالك من جواه، لأنه لو فعلا يريد إيمانا حقيقيا لقال (آمنت بالله ربي)، لكن هكذا السُلطة، تُعمي القلوب، تفعل بصاحبها فعل السحر، لقد غرق "فرعون"، لكن بقي هناك فراعين لم تَغرق بعد، إنهم يحتاجون لمعجزة كمعجزة "موسى" كي يهلكوا، وأعتقد لِما فيهم من جزء موروث من أبيهم الأكبر "فرعون"، فسوف تأخذهم (العنطزة) وقت هلاكهم.

هنا عبس وجه الدكتور، وفي ضجر قال: صدقني أن هناك نوعيات من البشر هم في الأساس سلالة من القرود أخطأ الناس في تصنيفهم كقرود، وصنفوهم بشرا، لا عقل لهم مطلقا ويثيرون الضجيج والفوضى أينما حَلُّوا، تجدهم في سياسة أو رجال دين أو في أي مكان، أثرهم واضح بذيء ولا يعقلون ولا يسمعون.

قال الشيخ: لا شك الله يبتلينا بهم كما في القرآن (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة..)

يقول "عوض": بالنسبة لموضوعنا فكلنا مطمئنون لك يا مولانا، ونصدق كل ما تقول، ونتمنى ألا نندم على الموضوع دا.

يقول الحاج "سيد" وقد تقطب حاجباه: يا أخ عوض، مولانا أكيد عنده سر مُطَمئنه من ناحية الموضوع جدا !

فيقول الشيخ وقد انتشرت ابتسامة هادئة على محياه: اطمئنوا، الأخبار كلها تأتيني من مصدر مُطلع على كل شيء، ولِكَي يزيد اطمئنانُكم، أخبركم بأن هذا المصدر ليس من الإنس.

حَدَّق "عوض" في الشيخ مستغربا وابتلع نفَس الدخان كلَه بفوضى وأخذ يسْعُل بقوة، يسعل، يسعل، لقد اضطربت أنفاسُه، كِرشُه يعلو ويهبط كبالونة تتدلّى في حِجره، ناوَله الدكتور زجاجة الماء وهو يقول له بسخرية: (اسم الله عليك)، بينما الكل يضحك، فهو مربوع الجسم مربع الوجه وبدين إلى حد ما، على عكس الدكتور كان نحيفا أقرب للطول، بينما الشيخ والحاج "سيد" كأنهما قطعة واحدة لا فرق إلا في تفاصيل الوجه، والشيخ له لحية قصيرة يملأها الشعر الأبيض، أما "أحمد" فذو قوام عادي متوسط الطول له كِرش صغير، وكلهم خمريو البشرة، قال الشيخ وهو يتطلع في وجوههم ويشير نحو "عوض" باسما: كيف لهذا القلب الرقيق كعصفور أن يأتي معنا في تلك الرحلة؟!

كان قد هدأ واستعاد النفَس مجددا بأريحية، وقال: لا لا، اطمئن أنا قلبي جامد مثل الحَجر، أنا صنايعي مش تلميذ يا مولانا، الدخان فقط هو اللي...، وقبل أن يكمل الجملة انفجر الجميع بالضحك مجددا، قال الشيخ: لا تقلق، ولا يقلق أحد، فحينما ندخل المبني سيكون لنا صفة الضيوف وهي صفة تؤمِّن أصحابَها، ولن يكون ثمة خطر علينا، أقصد عليَّ أنا شخصيا،

وبالطبع أنتم معي، بل سأخبركم بشيء أدهى من ذلك، لقد سَبَقَتْكُم أسماؤُكم هناك.

اتسعت حدقتا "عوض" وهو يقول مكررا كلام الشيخ: هناك؟ أين؟!!

يضحك الحاج "سيد" ويضرب "عوض" على كتفه بكف يده بقوة ويقول: يعني هيكون في قسم الشرطة ؟!

علت أصواتهم بالضحك، يقاطعهم الدكتور: والله يا جماعة كل واحد فينا بداخله خوف وقلق وهذا طبيعي، لكن هناك فرق بين من يستطيع إخفاءه حتى يبدو خارق الشجاعة، وبين من لا يستطيع فيبدو على حقيقته، مثل "عوض"، ثم يلتفت للشيخ ويسأله بجدية: لكن ماذا تقصد بأن أسماءنا قد سبقتا هناك يا مولانا ؟، هل سيعُدون كشفا بأسمائنا ويتركونه مع فرد أمن البوابة ؟

انفجر "عوض" بالضحك وعلا صوته، وتحولت الجلسة لأشبه ما يكون بجلسة محششين، لكن الكلام غريب فعلا، والغرابة تثير إما الخوف، وإما الاندهاش والذهول، وإما الضحك الهيستيري، قال الأستاذ "أحمد": يعني فرضا يا مولانا الأسماء اللي عندهم الآن مختلفة مع بعض أسمائنا في البطاقة...، ولم يكمل الجملة وأخذ يقهقه، رد "عوض" وقال: هو احنا هنقدم لهم البطاقة كمان؟

وتحول الموضوع لمسرحية مليئة بالكوميديا والقفشات، والشيخ يضحك، ثم قال لهم بعدما طرأ على رأسه طارئ: الآن جاءتني فكرة خُطبة جمعة من هذه الجلسة، فسبحان من يُخرج الحي من الميت!

نظروا إليه لعله يكمل كلامه، لكنه نظر نحو الباب وتسمرت عينُه وسرح، هنا التفت "عوض" نحو الباب ثم رجع ببصره إلى الشيخ وقال: أي موضوع يامولانا مالك سكت فجأة؟

نطق الدكتور وقال بينما كان يغلق زجاجة الماء بعدما شرب: أكيد عن حُكم الهلس في الإسلام..!

التفت الشيخ إليه وقال: أنت فعلا محق، لكن العنوان ليس كذلك بالضبط، بل سأجعله (المِزاح، المُحرَّم منه والمباح)

علَّق "أحمد" وقال: يا أخي الشيوخ أساتذة في وضع العناوين وإنشاء الشعارات، لكن أحيانا نستمع للمضمون فنجده إنشاءً فقط، لا دسامة فيه.

التفت الشيخ نحوه كأن لدغته أفعى وقال: تقصد يعني إن أنا مبعرفش اخطب ومعنديش مضمون؟!

قال: لا بالعكس يا مولانا، لا يُعلى عليك في الخطابة، ولم أقصدك أنت بالطبع، بل كلامي عموما، ثم أنت يا مولانا لست من طينة الشيوخ الذين أقصدهم، أنت شيخ معاصر من طينة مختلفة، من الطينة اللي ربنا عجنها مناسبة للواقع، لك آراء تعجبني جدا رغم غرابتها عند الآخرين.

قال الحاج "سيد" معلقا: فعلا.، ثم استطرد يقول: أتذكر يوم أن أفتى الشيخ ل"ممدوح" ابن خالي أن يراجع زوجته التي طلقها في وقت مشكلة، وقتها كان كالمذبوح، يقول بأن تلك هي الطلقة هي الثالثة، كل شيوخ المؤسسة السلفيين قالوا له هي محرمة عليك، حينها ظل خمس عشرة يوما يسأل كل من هب ودب، وذهب للجنة الفتوى وقالوا له بأنها محرمة عليه وبانت منه، بالطبع حكى لهم التفاصيل، لكن كانت فتوى الشيخ "عبدالمقصود" له بأن الطلاق لم يقع؛ لأنه ليس عليه شاهدين، "ممدوح" ابن خالي طار بالفتوى وذهب ليعود بزوجته من عند أهلها وقال لهم نص الفتوى التي خرجت من الشيخ "عبد المقصود"، وهنا دب خلاف بين شيوخ السلفية والشيخ "عبدالمقصود" جعلتهم يصفونه بأنه ضال مضل ويدعو للزنا .

هنا ضحك الشيخ وقاطعه معلقا: الجهل بالدين وتنميطه جعل هناك مسَّلمات هي ليست كذلك، أتذكر أنني قلت لهم حينها لو أنا ضال مضل إذن فالشيخ "الألباني" كذلك، كادوا يقتلونني، لأن "الألباني" عندهم عَلَم كبير لا غبار عليه ولا خلاف، وهو كذلك، على الرغم من أن "ابن حزم" وغيره قال بعدم وقوع الطلاق بدون شاهدي عدل، والموضوع فيه تفاصيل كثيرة يعرفها الباحثون، لكني لم أذكر "ابن حزم" لهم لأن السلفيين لا يعتدون بآرائه غالبا، يقولون عنه أنه الناطق الرسمي باسم فلاسفة اليونان مثل "ابن رشد القرطبي"، لأنه يتفلسف، خلوا بالكم ان القرطبي صاحب التفسير ليس هو

القرطبي ابن رشد صاحب كتاب (تهافت التهافت)، المهم والأعجب من الموضوع كله أن عشرين شخصا من هؤلاء يخطبون بالمساجد من سنوات ويقال عنهم شيوخ ودعاة، لكنهم لم يكونوا يعرفون بقول "الألباني" في هذه المسألة..!

"عوض":هي إيه القصة يا مولانا؟

:القصة أن الرجل متزوج من عشرين سنة ولديه خمس عيال، ويحب زوجته، لكن الظروف تصنع خلافات وانفعالات غالبا وليدة اللحظة، والناس ما عاد لديهم طاقة للصبر، نِسب الطلاق مَهُولة وأنتم تعرفون، أين تذهب النساء والأطفال؟، الهدم سهل عن البناء، وهدم الأسرة لمجرد قليل من الغضب المدفوع بالظروف القاسية على الناس سلوك يساعد في هدم المجتمع، هذا السبب الذي جعلني قلت تلك الفتوى لأنقذ أسرة من الضياع، ولها سند شرعي ولم أكن أنا أول من اخترعها، الكثيرون من الفقهاء المعاصرين قالوا بها، لكن ما لقيته من المنتسبين للدين كان خطرا، كدت أن أسمع أحدهم يقول لإخوانه صائحا (أليس فيكم رجل رشيد يقوم فيضرب عنق المنافق؟) هههههه.

ضحكوا، حتى كاد الدكتور أن يفطس من الضحك.

قال الأستاذ "أحمد": مجتمع جامد غير قابل للتجديد لكنه قابل للهدم.

رد الشيخ قائلا: السطحية تفعل ما هو أنكى من ذلك، خذ هذه القصة البسيطة لتعرف السطحية التي تحيطنا، في قرية نسايبي بمحافظة الشرقية قالوا لي أن شابا يعمل حلاقا، صنعة يده ليست على المستوى المطلوب لتطلعات الشباب، الحال صار سيئا عنده والزبائن قليلة، مر عليه شيخ وقال له: تعال صلي وربنا يرزقك.

فراح الشاب وصلى معهم عدة أيام، كان حليق اللحية، وهنا جلس شيخ بعد الصلاة يتكلم عن حرمة حلق اللحية وفوائد اللحية بالإسلام، وتطرق بحديثه إلى أن قال بأن الحلاق الذي يحلق اللحية فلوسه حرام، الشاب أتته الفكرة وخرج من المسجد تجاه صانع اليافتات، وتفاجأ الناس في الصباح أن محل الحلاقة صار اسمه صالون الهداية، وتحته بخط رفيع كتب(نحن لا نحلق اللحية لأنها حرام)، وكان ذلك عند السلفيين بالمسجد فتحا عظيما، وحتى لا ينقلب الحلاق على عقبيه ويخسر دنياه وآخرته ويحلق لحيته ويغير اليافتة، تواصى الشيوخ بالحلاقة عنده وإكرامه، ومع الوقت صار الشيوخ يأتوه من كل مكان قريب وبعيد.

عوض : لكن الأعمال بالنيات يا مولانا!

: لا يهمني الآن نية شاب جاهل يريد أكل العيش وبيشغل دماغه، لكن سطحية فهم المدعين عافاكم الله.

قال الدكتور: والله شيء محزن، لكن أنا تذكرت بالمناسبة صاحبكم الذي تحدثتم عنه قبل الحلاق، الشاب الذي طلق زوجته، نعم، أليس هو قريبك الذي كان والده محتجزا بمستشفى(...) للصدر منذ سنوات؟!

قال "أحمد": افتح الباب ليخرج الدخان يا عوض.

قال الشيخ: بلى هو، الحاج "فتحي القصبي" الله يرحمه.

: نعم نعم، تذكرته الآن، أيام أن كنت أعمل بتلك المستشفى كان دائما يثير القلاقل بأفعاله الغريبه هو وابنه هذا.

: هذه العائلة فيهم تصرفات غريبة فعلا يا دكتور تشعر انهم خريجين العباسية (مستشفى المجانين)

: أتذكر الآن في تلك المستشفى وهذا من حوالي تسع سنوات، كانت مستشفى قرية (...) القريبة من هنا نصف ساعة، يااااه، لقد تذكرت أياما بتلك القرية وتلك المستشفى ما رأيت مثلها ولن أرى

قال"عوض": احكيلنا يا دكتور، وأنا هقوم اعمل دور شاي.

الدكتور: متعملش حسابي في الشاي خلاص، واستأنف، لما جاء هذا الرجل وكان مريضا لا يقوى على التنفس تم حجزه بالمستشفى بعدما اشتبه الطبيب في وجود جلطة على الرئة، وبعد التحاليل والفحوصات تبين أنه التهاب رئوي حاد، بالطبع هو يدخن بشراهة، وعنده قرحة بالمعدة، كنت أصرف له العلاج من الصيدلية بنفسي، والقرية كلها صغيرة تعرف بعضها، مرت خمسة أيام استطاع الرجل فيها أن يتنفس بأريحية مع العلاج المكثف،

وذهب السعال القاسي، وارتاحت بطنه، كان كورس العلاج قويا وفعالا ومنتظما بالطبع، لكن حالما شعر الرجل بتحسن ذهب في وقت غفلة وهدوء بالمستشفى تجاه البوابة، ومن بين موظفي الأمن أحد معارفه أو من أقاربه، والذي استسمحه ذلك المريض بأن يشتري شيئا من الماركت ويعود، وأخبره مستعطفا بأنه يريد فقط أن يشعر بأنه خرج ولو دقيقة خارج بوابة المستشفى وهذا يريحه بعض الشيء، بالفعل سمح له أمن البوابة في سذاجة، فخرج صاحبنا ومشى حتى عبر شريط القطار، وطبعا كف يده عليها البلاستر والكانيولا التي توضع له فيها الإبرة، جلس على المقهى وطلب حجر معسل وشاي، ربع ساعة وكان ابنه هذا (الذي ذكره الشيخ) بالمقهى، اتصلوا عليه وأخبروه بوجود والده، وحدث ما حدث بالمستشفى من حملة جزاءات طالت بعض الموظفين أولهم أمن البوابة الساذج، ظن أهل القرية أن المحجوز بمستشفى الصدر هذا يحمل في صدره فيروسات لا نهائية ستنتقل لهم من خلال الشيشة والكوب الذي استخدمه، والصورة الذهنية لديهم وقتها أن القرية ستمتلئ بالجثث في اليوم التالي!

كان يوما غريبا لولا ستر الله لما كان يمر بسلام.

ضحك الجميع، وعلقوا على القصة كل برأيه وهم يخلطون الشاي بالنكات في أفواههم.

استأنف الدكتور يقول: حصلت مشاجرة بين أحدهم أيضا وبين الموظف الذي ينفذ التعليمات بعدم دخول الزيارات، لكن المريض خرج

للردهة يندد ويشجب ويهدد كما لو كان به صحة فرعون، حتى شتم الموظف الذي بدوره تحامق معه وأقسم له قائلا(طالما صحتك حلوة وبتزعق كدا والله ما هتبات في المستشفى الليلة)

ليرد عليه المريض: انا كنت قاعد في بيت أبوك؟

وأخذ يردد كلام الموظف وعلق عليه بجملة مضحكة جدا (قال مش بايت فيها قال، طلقني بالمرة يا أخي)

بعض النبوتجية أخذوا يذكرون الموقف ويضحكون كلما ذكروه لفترة، هذه المستشفى في تلكم القرية اعتبرها الفلاحون ملكية خاصة يفعلون ما بوسعهم، تأتي النساء بزيارات غريبة من طعام وشراب ممنوعة للمريض، والأطفال منتشرون في كل مكان يستمتعون بنظافة المكان الذي ليس ببيوتهم، لكن الفوضى جعلتني أكره العمل هناك، وشر البلية ما يضحك.

قال الشيخ وهو يلملم ضحكته المتناثرة: الله المستعان على هذا العالم والعيشة واللي عايشينها.

ثم استأنف يقول لهم بجدية: دعونا نتكلم بموضوعنا عشر دقائق كي نقوم ويذهب كل منا لبيته.

صمت الجميع، رَكَن الحاج "سيد" الشيشة بعيدا عن مجلسهم بعدما انتهوا منها، قال الشيخ: بإذن الله سنبدأ العمل الجمعة القادمة مع غروب الشمس، سنظل ثلاثة أيام هناك، يعني سنأخذ معنا الماء والطعام اللازم طوال الأيام الثلاث، كل واحد يجلب معه بطانية، حين يحل المساء هذا

أفضل وقت كي لا يكشف أحد أمرنا ونحن على الطريق، العمل الجاد لثلاثة أيام يجعلنا نرتاح بعد ذلك، أكثروا من الخبز والجبن والماء، والعسل أهم شيء لنوازن احتياجات الجسم في أضيق الحدود، والدكتور لا ينسى بعض عقاقير ربما نحتاجها إن لزم الأمر، للصداع، للإجهاد، مضاد للفطريات مثلا ...وهكذا، أشياء بسيطة للأيام الثلاث، وعن الأدوات اللازمة فقد جهزتها أنا و الحاج "السيد"، نتوكل على الله وعلى لقاء يوم الجمعة القادمة (بعد يومين) بعد صلاة العصر مباشرة هنا.

سأل الدكتور وقال: قل لي يا مولانا، هل التنقيب والبحث عن الآثار وبيعها وتهريبها حلال شرعا؟

رد "عوض": ولو حرام يا دكتور، ما تفعله فينا الحكومة والأيام والليالي أشد حرمة، بعض السوء أحيانا يوازن الحياة، الغرق في المثالية أيضا حرام.

نظر "أحمد" وقال: كلام فلاسفة يا معلم عوض.

فرد عليه وقال: الحياة أكبر جامعة يتعلم فيها الإنسان بالتجربة، ليس كلاما على ورق، التجربة والواقع والهموم كلها هي ما وحدتنا في تلك الجلسة.

قاطعهم الدكتور: معذرة يا جماعة من فضلكم، لا زلت منتظرا لجواب مولانا.

قال الشيخ: كل ما في باطن الأرض يسمى كنزا أو رِكازا، والله شرع الزكاة عليها، يعني لو حرام لما قَبِل الله منها زكاة، ثم ليس كل ما تحرمه القوانين

حرام شرعا يا دكتور، الأمور فيها تفاصيل كثيرة أقلها أننا نأخذ بعض حقوقنا في الحياة فقط بالحيلة.

سأل "عوض" في تسلية وقال: قولوا لي ماذا سيفعل كل واحد منكم بنصيبه من الكنز؟

الحاج "سيد": سأتمتع وأسافر وأقضي بقية عمري كمَلِك.

الدكتور: أما أنا فسأشتري بيتا جديدا وأفتتح في أسفله صيدلية ضخمة وسط المدينة، وأصبح مديرها وأرتاح.

الأستاذ "أحمد": أنا عن نفسي سأعطي حق أخواتي في البيت وأقوم بترميمه، سأترك وظيفتي وأضع المال بالبنك وأعيش، أو ربما أشتري بيتا وأؤجره.

نظر المعلم "عوض" تجاه الشيخ "عبد المقصود" وقال له: وأنت يامولانا؟

قال الشيخ: سأوزع على الفقراء، سأطعمهم وأعطيهم ما يحتاجون، وسأترك لعيالي بعض المال أيضا.

قال "عوض" أما أنا فعندي مشروع عملاق سأعمل على تحقيقه!

سأله الحاج "سيد": ما هذا المشروع؟

قال: المشروع عبارة عن جمعية خاصة بال(تكاتك)، كل واحد سوف يشترك بجنيهين فقط يوميا، تخيل لو عندك خمسة آلاف (توكتوك) في جنيهين يوميا؟، يعني عشرة آلاف، يعني في الشهر ب300 ألف جنيه، حينها

أشتري قطعة أرض واسعة خارج حدود المدينة من نصيبي بالكنز، وأقوم ببنائها على هيئة وِرَش، سيكون لي مكتبا مجهزا أنيقا بالطبع، كل ورشة بتخصص، هذا سمكري، هذا كهربائي، هذا بوهيجي، هذا ميكانيكي...، وهكذا، ومحل لقطع الغيار التي سوف أجعلها حصرية عندي بتوكيلات مصانعها، وسوف أقوم بتشغيل الصنايعية الذين يشتكون من قلة العمل وعدم استطاعتهم توفير إيجارات الوِرَش فضلا عن متطلبات بيوتهم وأسرهم، وأعطيهم رواتب شهرية، ليكن كل واحد 4000 جنيه، سواء هناك عمل أو لا، والتوكتوك المشترك سوف نقوم بصيانته وإصلاحه بلا مقابل، وبهذا نحميه من استغلال الصنايعية، لكن بالطبع سيشتري قطع الغيار من عندنا، في هذه الحالة نوفر رواتب الصنايعية منهم، ونوفر لهم تكاليف الصيانة والإصلاح، بالطبع لن يأتيك ال(توكتوك) كل يوم، ربما نجعل لهم حد أقصى ثلاث أو أربع مرات شهريا بالستين جنيها، هذا بالإضافة لأي صاحب (توكتوك) يحدث له ظروف صعبه يجدنا في مساعدته.

الكل انبهر بفكرة "عوض" ورحبوا بها وأثنوا على تفكيره:

هكذا تفكير ولاد البلد يا "عوض".

: الأفكار عندنا كثيرة جدا لكن من يشجعنا ويدعمنا ويسمعنا؟!

قال "أحمد" ساخرا: وبعد كل هذا الحكومة تمنع ال(توكتوك) نهائيا ويخسر الجميع ماله.

الشيخ: لن يستطيعوا لأنه مصدر رزق الغالبية بالبلد، لكن ربما يتم تقنينها وعدم ترخيص الجديد منها، أو ربما يمنعوا الاستيراد.

قال "عوض": قلت لكم الحياة أكبر كلية تمنح شهادات خبرة يا جماعة.

قال الحاج "سيد": سأحكي لكم أول مرة تعرفت فيها على "عوض" من سنين طويلة، كنت في أجازة من السفر قضيتها في بداية عام 2005، كان عندي شقة في هذا البيت لم يتم تشطيبها، كنت قد أرسلت المال لوالدي رحمه الله فبناها وصب سقفها وأسس للكهرباء والسباكة فقط، فقلت حينها أتسلى في تشطيبها أيام فترة الأجازة، وكان المال معي متوفرا ويفيض، فبحثت عن أول (صنايعي) يُفترض هو الذي سيفتح بقية بنود التشطيب لزملائه، قالوا مفترض يدخل (مبيض المحارة) أولا، ودلني البعض على رجل يُدعى "عوض موس" قالوا عنه أن يده تُلَف في حرير، ولما سألت متعجبا عن اسمه "موس" قالوا لي لأن شغله في المحارة كحد الموس (الشفرة) لا اعوجاج فيه، وذكروا لي أنه من قام بتشطيب برج فلان الأكبر بالمدينة، وله أعمال كثيرة هنا وهناك، المهم طلبته فجاءني وجلست معه بعدما عاين الشقة، قال لي: هذه الشقة ستكلفك محارة ونقاشة ما يقرب من 12 ألف جنيه.، وعرفت أنه يأخذ بند النقاشة معه في المقاولة، واتفقنا، وبدأ العمل بعد خمسة أيام بعدما أوجد لي دورا في عمله، لأنه معروف ومعه شغل كثير، ويفتح الله به بيوت الكثيرين ممن يعملون معه من عمال وصنايعية، تعَّرفنا على بعضنا،

وصارت بيننا صداقة خارج الشغل، العمال في شغلهم في الأعلى بينما هو جالس معي بعض الوقت نشرب الشاي ونتكلم في أي شيء في الشغل وغيره...

يبتسم "عوض" ويتذكر المشهد فيقاطعه ليكمل القصة

: بقي لنا في بند المحارة يومان يا ريس ثم سوف نعود إليك لتأسيس الدهان بعد أسبوع.

: لماذا بعد أسبوع، يمكنكم البدء في العمل مباشرة فالخامات موجودة وأجرك موجود لو أردته كاملا قبل البدء.

: لا لا، الموضوع ليس خامات ولا فلوس، الموضوع أصول شغل يا ريس، الجدران ما زالت رطبة، الماء بداخلها، ليس صحيحا البدء الآن أبدا، على الأقل أسبوع حتى تجف، معنا منزل بالبر الثاني خلف النهر سنبدأ فيه مباشرة

: أها، تمام، لكن هذا المنزل سيأخذ منكم شهرا على الأقل وأنا في أجازة وأنت تعرف الوقت ليس بصالحي.

: لا تقلق، العمال الذين سيبدأون عندك بعد أسبوع ليسوا نفس عمال المحارة، هؤلاء آخرون، الآن تعالى نتحاسب، وصلنا منك ثلاثة آلاف، بقي من بند المحارة ألفان ونصف، منهم ألف ومئة وخمسين باقي حساب الأسمنت والرمل، والباقي من المصنعية،

عندك 450 مترا في سعر 6 جنيهات يكون الناتج 2700، والمواد (رمل وأسمنت) ب2800، وأضف 30 م كورنيشة (زاوية جبس) في 7 جنيه، يكون الناتج 210 قل 200

: لا، قل 250

: والله هذا تقدير منك يا ريس.

: يعني أصبح المطلوب مني الآن 2750 جنيه؟

: بالضبط

: تَفضل يا معلم، ثلاثة آلاف معك، ال250 دخان للعمال

: أنت زبون محترم، ليت الجميع مثلك في الذوق والتقدير يا أستاذ "سيد"

: الموضوع بسيط يا معلم "عوض"، شغلي انتهى على خير، وأجرُك مبارك فيه ولا خلاف في ذلك، بل أزيدك وأقدرك

: تخيل هناك زبائن مستعدون للإنفاق على الخامات والمُوَن عشرات الألاف ثم عند أجر المعلم يستكثرونه وكأنه لم يهطل العرق منه شلالات في عمله الشاق!

: هؤلاء مرضى أو حمقى، لا بارك الله فيهم أبدا

: أخبرتك منذ قليل أننا سنبدأ العمل في بيت كبير بالبر الثاني، هل تعرف أن صاحبه موظف كبير في الكهرباء، وزوجته موظفة في نفس المحطة أيضا، وعندهم ما شاء الله بيت آخَر كبير في وسط المدينة، ولما ذكرتُ لهم

سعر المتر ستة جنيهات أخذوا يفاصلون معي لأبدأ العمل على خمسة جنيهات فقط، أولا المباني والخرسانات سيئة عندهم جدا وهذا سيقلل إنتاج الصنايعي ويأخذ وقتا وجهدا زائدا، ثم لو حسبنا الجنيه الواحد لوجدنا ربما مجموعه 1500 جنيه أو يزيد قليلا في كامل الشغل، بالنسبة لهم ولحجم الشغل وكمياته لا شيء!

: لا تترك لهم مليما يا معلم هذا تعبك وأنت تقدره كما ترى، هؤلاء ميتون على الدنيا

: فعلا، لقد أصبحتُ خبيرا بتحليل الزبائن من أول وهلة وقت الاتفاق، لا أخفيك يا أستاذ "سيد" لقد قررت أن أرفض هذا البيت لو أطال معي الفصال بضع دقائق أخرى، الزبائن يا حاج "سيد" تريد إتمام شغلها بتراب الفلوس، لا يُقدرون تعب العمال الذين تأتي عليهم أيام كثيرة لا عمل لهم فيها، أو ربما لو أصيب أحدهم في العمل أو خارجه وقعد في بيته لن يجد دخلا ينفقه على عياله، هؤلاء العمال _ وأنا منهم بالطبع _ أرزاقنا متوقفة على استدعاء الزبائن لنا، هل فكروا كيف لو أتى علينا وقت لم يستدعنا فيه أحد؟!

: أصابعك لا تشبه بعضها يا معلم "عوض"، وأكيد الزبائن السيئة قليلون مقارنة بالزبائن الجيدة؟

: لا طبعا، السيئون أكثر، لقد رفضت أكثر من عمل بسبب أنني لم أشعر بارتياح للزبون، المهم حتى لا يأخذنا الكلام، بعد أسبوع يا أستاذ "سيد" بإذن الله سأمر عليك لآخذ منك عربونا (مقدم شغل) لخامات الدهان، ثم لنبدأ في اليوم التالي بعون الله، تمام؟

: وهو كذلك يا معلم لكن أسبوع فقط، لا تتأخر رجاءً

: لا، لن أتأخر عليك، وكلمتي عَقد.

يقول "عوض" معلقا بعدما عاد بعقله من الماضي للحاضر: والله كان زبون محترم. (قالها ويشير نحو الحاج سيد ويبتسم)

يضحك الجميع، يسأل الأستاذ "أحمد" مازحا: المهم رجع بعد الأسبوع أم ضحك عليك؟

يقول الحاج"سيد": لا يا أخي، بالطبع بعد ستة أيام عاد المعلم "عوض" واستأنف العمل وصارت بيننا صداقة بعد ذلك، وأصبح في كل أجازة لي من السفر يأتيني من أول الناس لمقابلتي والاطمئنان علي.

قال "عوض" مستأنفا: نعم، وبعدها بمدة سنتين تقريبا اشتغلت في تشطيب واجهة البيت.

قاطعه الحاج "سيد" قائلا: فعلا والله، كنت قد نسيت.،والتفت للجالسين وقال: ظل عشرين يوما في العمل مقابل عشرة آلاف وخمسمائة،

الآن هو يعمل عشرين يوما لا يجد متوفرا معه مئة جنيه، إنني مشفق على فئة الصنايعية في هذه الظروف التي نمر بها جميعا، أعتقد لولا ال500 جنيه التي تمنحها الدولة لهم تكافلا وكرامة لماتوا من الجوع..!

قاطعه "عوض" مغضبا وقال: على الرغم من أنها لا تفعل شيئا إلا أنهم رفضوني ولا أعرف ما السبب، لم آخذ التكافل والكرامة مطلقا، أنا إنسان فاقد للكرامة والتكافل يا عمّ الشيخ!

يرد الشيخ ويقول له: الله كفيلك وفي هذا منتهى الكرامة يا "عوض".

قالوا جميعا في خشوع: ونعم بالله يا مولانا

يستأنف الحاج "سيد" حديثه وهو يضع قطعة الفحم في النار: كانت واجهة بيتي أنظف وأجمل واجهة بيت بالمنطقة، كانت قبيحة قبل أن يُجملها المعلم "عوض"، أتى برسام ووقفا أمام البيت ليعاين الشكل كي يختار من ذهنه رسمة مناسبة ثم يقوم المعلم بتنفيذها بمادة الجرانيت بعد ذلك، أربعة ألوان متداخلة وخطوط بيضاء مرسومة بفنية عالية تفصل بين الألوان، وصنعة المعلم طبعا لا غبار عليها، لهم حق أن يلقبونه ب المعلم (عوض مُوس)، لو كان موجودا منذ قرنين من الزمان لاحتفلوا به الأول على دفعته، وسيشهد له شيخ الصنعة بالكفاءة، وربما أرسلته الدولة للخارج ليستفيدوا من خبرته، يااااه، كان للحرفيين وأصحاب المهن في العهد العثماني مكانة كبيرة، الآن حتى الجامعات العُمالية والمدارس الفنية أصبحت هلامية لا تخدم المهن والحِرَف على الحقيقة!

قال "عوض": والله كلامك سليم، شوف حسن أرابيسك بالمسلسل كان بطل شعبي وصاحب مهنة يناطح بها الدكتور.

قال الدكتور "هاني": كان قديما يصنفون الحرفيين والتجار ورجال الدين طبقة برجوازية (وسطى)، الطبقة الأدنى كانت العبيد والمزارعين والعمال.

قال "عوض": والطبقة الأعلى؟

: طبعا رجال الحُكم والكهنة يا عوض.

: الآن الصنايعية والعمال اللّي بيشغلوهم (صبيانهم) طبقة العبيد الأدنى.

: والله والدكاترة والمهندسين والشيوخ والموظفين...، طالما لست من رجال الأعمال الكبار المسيطرين، ورجال الحكم والمؤسسات الكبرى الأمنية والقضائية والتنفيذية و...

: خلاص خلاص يا دكتور، المهم اننا كلنا في هذه الجلسة طبقة أدنى،

طأطأ رأسه وسكت لبرهة ثم التفت للحاج سيد وقال يغير الموضوع: لكن هل دققت النظر في واجهة بيتك الآن؟!، أصبَحَتْ تحتاج لترميمات يا حاج، ووالله لو أعطيتني ألفيْ جنيه لسوف أعيدها أحسن مما كانت.

قاطعه الحاج "سيد" وقال بصوت عال: لاااااا، إن شاالله تتطربق كلها على الأرض لن أنفق جنيها، الفلوس خلصت يا معلم خلاص، الزبون اللي يشتري البيت يفعل فيه ما يشاء، إن شاالله يهدمها ويبنيها من جديد.

يقول الدكتور: الكثيرون من عمال المنطقة الآن يحسّنون دخولهم بشغلهم على ال(توكتوك) داخل المدينة، الناس ضاقت عليهم الحياة كما لو ضمهم القبر!، الراكب بجنيه ونصف لأي مكان بالمدينة، والتوصيلات خارج المدينة لها أجرة جيدة، هذا عمل جيد منذ عام 2000 تقريبا، أتذكر أيام أن كان أجر التوصيلة جنيها واحدا، كان وقتها طلع لنا مطرب شعبي يسمى "نسيم العربي"، أول شهرة حققها على نطاق واسع بالمدينة لأغنية قام بتأليفها بنفسه، ولحنها بنفسه، وسمعها بنفسه هبه، يقول في مطلعها (مبتركبش توكتوك ليه؟، التوكتوك بقى بجنيه).

(يضحكون جميعا)

يقول الأستاذ "أحمد": أتذكر حينها أن أول ثلاثة (تكاتك) نزلوا المدينة للعمل اجتمع عليهم سائقو الحنطور وأشبعوهم ضربا، المدينة ملأى بالحناطير، ومع دخول ال(توكتوك) نظر الناس إليه على أنه شيء ظريف وسريع، بالإضافة لأن ال(توكتوك) لا يتبول ولا يُلقي فضلاته في الشارع وأمام المحلات كالأحصنة، فهي وسيلة راقية وقتها في أعين الناس الذين رحبوا بالفكرة، كما رحب بها كثير من العاطلين وذوي الاحتياجات الخاصة وكبار السن وكل مَن يريد أن يحسن دخله كهؤلاء الموظفين، لكن هذا في نظر أصحاب الحناطير(وقف حال) لهم، في البداية كثرت المشكلات مع سائقي الحناطير وسائقي التكاتك خصومهم، ولكن مع الوقت تتدفّق أعداد ال(تكاتك) بالمدينة وخرج الموضوع عن السيطرة بالنسبة للحناطير

يقول الحاج "سيد": لا ننكر أن أسلوب سائقي الحنطور كان سيئا فظا غليظا، حتى أن الناس يعيبون على بعضهم الأسلوب الفظ المعيب بقولهم لمن يعيبون عليه: (إنت عربجي)؟، بالإضافة لكونهم في السابق كانوا مستغلين جدا، المشوار بثلاثة جنيهات ويزيد، ولذلك كان حتما تكالب الناس على ركوب (التوكتوك)، وهو الأمر الذي دفع ببعض سائقي الحنطور للتخلص من الحصان والعربة وشراء (توكتوك) استسلاما للأمر الواقع.

يقول الدكتور: نجح هذا المشروع في بداياته، والدخل كان رائعا يوميا، أعرف ذلك، فقد أصبح الكثيرون يتركون مهنَهم ليشتروا (التوكتوك)

يضيف الشيخ: بعض سائقي ال(بيجو) باعوا سياراتهم التي لا تجلب لهم نصف دخل ال(توكتوك)، بالإضافة لمشكلاتهم مع لجان المرور على الطريق، المدينة في وقت بسيط تحولت ل(جمهورية التوكتوك العظمى)

"عوض" : غالب أهل البلد يعتمدون على (التوكتوك) كمصدر للدخل

يفيدهم الحاج "سيد" بقوله:

تخيلوا، بعد رجوعي من الخارج واستقراري بالبلد وكذلك بعدما تزوجت، أشار عليَّ حوالي ثلاث عشرة ألف وستمائة وخمس وستين شخص أن أشتري ال(توكتوك)، بل أشتري أكثر من واحد، وأقوم بتشغيلهم بالسوق، ولا زالوا ينصحونني بتشغيل المال في ال(توكتوك) ولكن لم يبدو ليَ الأمر مريحا، كان الناس في ذلك الوقت لهم طريقتين في العمل على(التوكتوك)، الأولى كانت بالنسبة وهي حيث يحصل السائق على يوميته

من مجمل الدخل بنسبة الربع أو الثلث كما يتم الاتفاق، والثاني هو الإيجار، حيث يؤجر المالك (التوكتوك) لشخص ما مقابل ستمائة جنيه كل شهر، والفرق بين الحالتين أن في الحالة الأولى تكون الصيانة وإصلاح الأعطال على المالك، بينما في الثانية تكون على المستأجر.

الدكتور يضيف: ولكن مع التطور الطبيعي للاستخدام وظهور بعض الظواهر بدأ مجلس المدينة ورجال الحي والمرور في وضع ضوابط واتخاذ قرارات، سيما بعدما تحولت المدينة لزحام شديد بسبب انتشار (التوكتوك) بشكل رهيب، علما بضيق شوارع المدينة، وأيضا الضوضاء والصخب الذي افتعله سائقو (التوكتوك) بما يسمى ال(صَب)، وهو (مزياع وسماعات تضخم الصوت بشكل فظيع)، بالطبع قام بصناعتها من يستغل الفرص لينتج ويربح ولا علاقة له بما سيترتب عليها!

الحاج "سيد": انشغلتُ بمحلي وتجارتي الصغيرة كتسلية لِما كان معي من مال في البنك، في تلك الفترة بدأ صاحبنا المعلم "عوض" يشتكي قلة العمال وزيادة عدد الصنايعية، وبدأت تظهر آثار جانبية على طبيعة الحياة الاجتماعية بالمدينة، والتي تطورت في عام 2018 لتكون جمهورية "التكاتك" العظمى كما يتندر الناس من خارج وداخل المدينة، باعتبار أنها المدينة الأكثر عددا لتلك الوسيلة الداخلية، ومع الوقت بالطبع ومع زيادة الأعباء ومحاربة المرور للتجاوزات، وبعض القرارات التي يراها الناس غير إنسانية، بدأت تتكشف الحياة في المدينة عن معضلة، فغالب الحرفيين يعملون في

(التوكتوك)، ومع انتشار البلطجة والتجاوزات والسرقة باستغلال (التوكتوك) أصبحَت في نظر الناس مهنة معيبة، ويشعر الكثيرون معها من سائقي (التوكتوك) المضطرين من المحترمين بالضجر والمهانة، وظهرت على الناس سلوكيات غريبة وقتئذ تنم على الأنانية وسوء الأخلاق، منذ عام 2014 اضطر صديقي المعلم "عوض" لشراء (توكتوك) موديل السنة ب20 ألف جنيه بالتقسيط، كل شهر يسدد ألف جنيه.

يقول "عوض": فعلا، سريعا ما تعددت وكالات بيع (التكاتك) و(الموتسيكلات) الصيني و(التروسيكلات)، كل هذا ظهر بعد ذلك ليزيد من فوضى الشارع، وكعادة الناس حين يملون من عمل ينقلبون لغيره، راح الكثيرون يتركون زحام العمل في مجال (التوكتوك) الذي أصبح غير مجزي مع ارتفاع الأسعار وازدياد عدد سائقي (التوكتوك) واشتروا (التروسيكل) لنقل بضائع الناس من مكان لآخر، ومع الوقت تتكرر المشكلة، يتكالب الناس على (التروسيكل) حتى تظهر ظواهر معيبة من عناصر معينة من سكان المدينة ينبشون في أكوام القمامات ويلتقطون من الشوارع زجاجات المياه وعلب الكانز والورق وكراتين البضائع لبيعها لوكالات تبيعها لمصانع إعادة التدوير، وأصبح شكل المدينة شبيها بأحياء فقيرة بدولة الهند كنا نشاهدها ونتعجب من خلال برنامج (مواقف وطرائف وعجائب وغرائب)، وحينما تكثر شكاوى الناس نسمع قرارات وشعارات من هنا ومن هناك، يخرج مسئول ليقول للناس بأنه سيمنع (التوكتوك) ويستبدله بسيارة من

نوع كذا وكذا.، وهنا يصيح سائقو (التوكتوك) خائفين من إهمالهم والإضرار بمصدر رزقهم الوحيد، ويطلق البعض شائعات بأن صاحب مصنع تلك السيارات التي يريد المسئول أن يستبدل (التوكتوك) بها إنما هو صديق المسئول أو قريبِه، وما هي إلا محاولة للتربح فحسب، الفجوات تتفاقم والمشكلات تزداد بالمدينة، والناس محتنقون على آخرهم، ومن كان بالأمس يحسده الناس على ماله واستقراره يرتاب ويقلق معهم من أن تعصف بهم الظروف أكثر وأكثر، حتى هؤلاء المساكين والمحتاجين ممن كانوا يعتمدون على رواتب شهرية من أيدي المتصدقين بعيدا عن الدولة ما عادوا يحصلون على شيء، فلان كان يتصدق بمئة جنيه شهريا ضِمن المئات، أصبح الآن يقول بأنه يحتاج لمئة جنيه إضافية لِكي تكفي حاجته وحاجة بيته !

الأستاذ "أحمد" : لكن القانون له اليد العليا، الأمر صار معقدا بالمرة !

"عوض": تركنا موضوع (التوكتوك) وذهبنا باتجاه تلك المدن الجديدة التي عملت الحكومة على بنائها، فذهبنا للعمل في مهنتنا، وبالفعل ظل الجميع فترة لا بأس بها يعملون حتى ظهرت مشكلات وفجوات كالعادة تزيد الأمر تعقيدا، الأسعار لم تعد تجزي بتلك المدن، والمقاولون الكبار يمتصون حسنة العمل ليتركوا المصلحة جافة لمقاولين صغار من الباطن، ومع قلة العمل بداخل المدن وتدفق الجموع لتلك المدن الجديدة يظهر سلوك ملازم وهو الاستغلال.

الدكتور: هذا أمرعادي، فكثرة الطلب تجعل الذي يعرض بضاعته دائما في راحة واطمئنان ويضع شروطه بلا قلق.

"عوض": ولذلك يا دكتور هبطت الأسعار وارتفعت الأجور، أسعار الشغل وأجور العمال، ومع خصومات الشركات التي تقضي على أي جنيه متوفر للمقاول، هرب الكثيرون من تلك المدن ليعودوا أدراجهم ل(التوكتوك) وغيره من أعمال أخرى قد تتاح لهم بعض الوقت

"أحمد": والله يا صديقي ازداد الأمر سوءا، والأعباء تزداد، كل شيء ارتفع سعره بينما نحن نزداد رُخْصا في هذا العالم، لا أعرف كيف نعيش؟!

الشيخ: لا شك هي فترة عصيبة يا شباب وسوف تمر بحلوها ومرها، الصبر جميل، لعل في ذلك حكمة، نحن نعيش في ضنك لأجل أن تُبنى البلد كما ترى وتسمع، ففي الماضي كان الناس يعيشون الفوضى حتى تفاقمت الأزمات بالدولة وقت أن كانت بطونهم ممتلئة، والإصلاح له آثاره الجانبية وأنتم تدركون ذلك.

نظر إليه مقطبا حاجبيه وقال: أنت تتصبر بهذا الكلام يا مولانا، لو جميعنا الآن متنا من الجوع لأجل أن تُبنى المدن والطرقات فمن سيستفيد بها؟، وهل لا يكون البناء إلا بهدمنا وهدم حياتنا نحن؟، لماذا يزداد الأغنياء غنى في وقت أننا نزداد فقرا لأجل الوطن؟، الأسئلة كثيرة لكننا لا نجد من يجيبنا بالحقيقة، الحقيقة التائهة في كل شيء هنا.

: بالعكس، رئيس الدولة يحارب كل أنواع الفساد، فهل كنت تسمع عن اقتحام مكتب وزير والقبض على مدير مكتبه بتهمة الرشوة من قبل؟، هذا دليل الصدق في العمل لكننا نتعجل، الآن أنت تجد الترع والمصارف بالقرى تقوم الدولة بتبطينها، هذا العمل يمنع انتشار الأمراض ويعطي جماليات للقرية أكثر، بالإضافة لأشياء أخرى، الآن الغاز الطبيعي امتد لبداية منطقتنا المهمَلة منذ عقود، ها هي أيام قليلة وسوف يتم توصيل الغاز الطبيعي، سيتخلص الناس للأبد من أزمات الأنابيب المقلقة، وهناك من الكلام المتداول على صفحات المدينة على فيس بوك أن تلك المنطقة بالكامل سيتم تشجيرها، وسيتم وضع صناديق بها خراطيم حرائق في كل منطقة، فضلا عن أن تلك الشوارع ستغطَّى بالأنترلوك يا ريس، لن يكون هناك وحل وطين في الشتاء كما السابق، لن يتوقف التوكتوك بك في أول المنطقة بعيدا عن مقرك ويتركك بما تحمله على كتفك من حقائب بحجة أن الشوارع غير نظيفة وغير ممهدة، سنمشي دون عناء وأحذيتنا لامعة نظيفة، كل هذه الأعمال تجعلنا نصدق المسئولين يا جماعة، وتجعلنا نصبر على الضيق الذي سيمر في وقت ما.

يقول الحاج "سيد" معقبا: والله الواحد في حيرة، نعيش كل شيء وعكسه، وأنا عن نفسي لا أستطيع فهم شيء..!

وبينما هم كذلك إذ علا صراخ امرأة من بيتها كدوي مدفع، انتفض الكل وهرعوا للشارع باتجاه الصوت، دقائق وقد امتلأ المكان بالناس كأنهم

نبتوا من الأرض، أو كجموع الجنود حين يتجمعون من أول صافرة، ومن تساؤلاتهم عن صراخ المرأة وما يحدث تبين أن شجارا نشب بين الزوجين اياهم، تدَّخل البعض بينما عاد أصحابنا لجلستهم في ضجر وتأفف، والشيخ يقول لهم: هذان الزوجان لا يفلح معهما صلح ولا تحقيقات ولا حتى طلاق، مشكلاتهم كثيرة ومعقدة، أعتقد لو تم بينهما طلاق فسوف يترصدان لبعضهما في الطريق لاستئناف الخناقات مجددا!

يرد "عوض": النكد شرٌ في البيوت يا مولانا وربنا قادر يهديهم.

أستاذ "سيد" يقول: كل يوم أو يومين نحقق ونتدخل في مشكلة بين زوجين حتى مللنا والله من هذه المشكلات!

الأستاذ "أحمد": لكن أنت ترى النساء لا يسكتن أبدا، عندهن حماقات كفيلة بأن تجعل الرجل الحليم يتحول لمصاص دماء.

الدكتور: نِسبُ الطلاق التي انتشرت بسبب ضيق الحال، وعدم صبر النساء على أزواجهن!

الشيخ: هذه مشكلة كبرى لا شك، لكن الرجال مع تقصيرهم الغير متعمد _ ربما _ لا يملكون الحكمة في التعامل معهن، يضربونهن ويثقلون عليهن، الكثير من النساء خرجن للعمل لمساعدة أزواجهن فيجدن من الرجال اعتمادية وتواكل، على الأقل من خلال ما أراه حولي في هذه المنطقة، يجب تفعيل حق السعاية للمرأة من هؤلاء.

يقول "أحمد": لي ثلاث أصدقاء لم أرهم منذ خمس سنوات، قابلتهم كل على حِدة، كل واحد منهم أخبرني بأنه طلق امرأته، أخذت أتعجب كيف يكون الزواج سكنا في ظل هذا الواقع؟

ولماذا آباؤنا وأمهاتنا ظللن في صبر وتعايش رغم ظروفهم الأصعب في السنين التي سبقت مجيئنا؟!

رد "عوض" وقال: لأنهم إيجار قديم يا أستاذ.

وعلى الرغم من قصد "عوض" إلا انطلقت الضحكات منهم جميعا على كلامه الذي جانس بين كلمة سكن وكلمة إيجار قديم.

ثم استطرد "عوض" بجدية : لكن هناك مشكلة كبرى وهي القروض التي غزت المدينة، أنت تعرف استغلال الناس للظروف، فوائد قوم عند قوم مصائبهم.

الأستاذ أحمد يصحح له: بل مصائب قوم عند قوم فوائدهم يا عوض.

فيقول: المهم أن أحدهما يتغذى على الآخر.

يقول الدكتور: حقا كلامه حقيقي جدا، النساء يقترضن كثيرا لتيسير أحوال البيت، والرجال من عجزهم لا يفعلون شيئا حتى تزداد المشكلة وتجد بعضهن خلف القضبان بعدما عجزن عن السداد

المعلم "عوض": الرجال يفعلون كل شيء لأجل السداد، البنوك لا تصبر على أحد أبدا ولو ستبيع عيالك، لا عذر لديهم في تأخير الأقساط أبدا ولو وجدوك تشخب دما، أعتقد أنه يجب على الدولة منع القروض عن غير

الموظفين وأصحاب المعاشات ورجال الأعمال، أو تمنع البنوك والجمعيات من جعل هؤلاء المساكين يُوَّقعون على إيصالات أمانة مقابل القرض

الدكتور: وكيف يضمن هؤلاء المقرضون حقوقهم؟

الشيخ: الفقراء يسددون لكن لا ينفعهم تحديد يوم معين للسداد، ولو زادت الفائدة وانتفع البنك مقابل تيسير السداد والقسط سيسددون بلا تأخير، الفقراء لا يمتنعون لأنهم يحتاجون للمزيد من القروض فيما هو قادم، هم يسعون لإثبات حُسن النية دائما

المعلم "عوض": لكن الزوجات كثيرا لا يُعلِمْن أزواجهن بتلك القروض ويتسبب هذا في خلافات تنتهي بالطلاق كثيرا كما يحدث حولنا.

الدكتور: المشكلة في نوعية النساء اللاتي يُخفين عن أزواجهن ذلك، هذا حُمق منهن، ويستحققن الطلاق عليه بنظري.

الحاج "سيد": هن لا يفعلن ذلك إلا من حاجتهن القصوى، الظروف حينما تتحكم وتستبد بالناس تخرب العقل وتنسف الحكمة.

الشيخ: وما العيب في إخبار الرجل بذلك طالما هو أمر عادي؟

الحاج "سيد": أحسنت، وهذا لا دخل للدولة فيه من قريب ولا من بعيد، حتي لا نعلق خيباتنا على الحكومة.

الدكتور: لكن للدولة دخل في توفير حياة كريمة للناس وتوفير فرص عمل لهم، نحن لسنا موظفين ولا نريد وظائف

الشيخ : وما ذنب الدولة في كون الناس يفسدون على بعضهم كل وسيلة بأساليب مختلفة ومتعددة؟، انظر لرجال الأعمال والتجار عند حدوث أي مصيبة يرفعون على إثرها الأسعار!

المعلم "عوض": الكلام كثير يا أستاذ سيد، نعرف أن سبب تدهور الأسعار الغير مناسبة للأجور هؤلاء الفسدة من اللّصوص.

الأستاذ: تقصد من؟

المعلم "عوض": الذين يقومون بما يسمى (غسيل الأموال) يأخذون كميات كبيرة من المقاولات بأسعار رخيصة، لا يستطيع المقاولون العمل بها، لكن الشركات توافق لمصلحتها لا شك، ومصلحة هؤلاء اللصوص أن يتخفون خلف تلك المقاولات، لو سيخسرون مليونين في مقاولة فهو أفضل عندهم من خسارة عشرة ملايين إن شك فيهم المسئولون، ولا نزال نحن البسطاء نُدهَس تحت أقدام الكبار دهسا.

قاطعهم الدكتور: ما رأيكم نغير الموضوع وأقرأ عليكم جزءا من قصيدة قمت بتأليفها منذ يومين؟

اختلطت الأصوات بالموافقة، بينما الشيخ يعلق قائلا: أنا أول مرة اعرف انك بتكتب شعر يا دكتور.

فيقول الدكتور: هوايتي القراءة من أيام الثانوية العامة وكنت أشارك بمسابقات الشعر، كنت مميزا، لكني تركت ذلك انشغالا بالكلية ومنهجها الذي يحتاج لكل الوقت، فأهملت الشعر، لكن لا أخفيكم أنني تذكرت

موهبتي من فترة وجيزة لما سمعت بالصدفة أحد الشباب على إحدى القنوات يلقي شعرا ليس بشعر أبدا، قالوا أنه مشهور، وتعجبت جدا أن يكون هذا الكلام الركيك الذي يلقيه له حظوة وانتشار، دنيا ماشية بالمقلوب يا مولانا !

عموما اسمع مني جزءا من قصيدة كتبتها من عدة أيام:

أنا اللي ملامحي من الوجع شاخت

واتبدلت كل أوصافي

وانا اللي عمري فوق جسر الحياة صافي

بسرق بهجة كالأطفال

عايش الحياة موَّال

تايه حزين

بتمر أيام الأسى في سنين

شارد في وسط المهزلة

واتهدت اكتافي

حبة بقر

من غير طحين

عايشين هجين

بين البشر

والكل عاش بيعُكها

ويا العيال الثايرة فاتحة بؤها

والطفحانين

لو مرة قاموا اتكلموا

أقلام بتصفع وشها

الشبعانين المفسدين

سايقين خراب

من غير ما حد يلمها

أنا اللي ساير في الدروب

ويا القلوب

مشتاق وشاري حضنها

يمكن تفوق...

(وهنا قاطعه عوض) قائلا: يمكن تفوق من الخاذوق..

ضحك الجميع، وغضب الدكتور من المقاطعة وأقسم ألا يكمل لهم القصيدة، لكنهم استحسنوا موهبته، وكان تعليق "أحمد": كويس يا دكتور أنك أهملت موهبتك من زمان.

قال: لماذا؟

قال: كلامك عميق وخطر عليك، يجب لكي تكون موهوبا بهذا المجتمع أن تكون موهوبا في السطحية، تماما كالكاتب يفلسف الخيبة ويبرر لها، هذا

كاتب عظيم سوف يتصدر المشهد، أما من يسخر من الخيبة مثلك فمكانه معلوم.

قال "عوض": أيوه يا دكتور فعلا، خطر عليك الشِعر، لكن مش خطر عليك شغل الأثار.

قال الحاج "سيد": الشِعر له أثر أكبر من الأثار، بدليل انك ممكن تعاقب بالإعدام لأجل الكلمة، بينما تهريب الأثار مجرد سجن عدة سنوات.

قال الشيخ معقبا: الكلمة لها أثر خطير، إن خيرا وإن شرا، وهل الدولة التي انتحرت في سلسلة من الحروب حتى تلاشت، هل فعلت ذلك إلا بكلمة!

قال"عوض" للدكتور: أكمل لنا القصيدة الفاجرة بتاعتك يا دكتور أصلها عجبتني جدا.

نظر الدكتور لعوض وابتسم ساخرا له وقال: عجبتكَ فجعلتها فاجرة، أنت تحتاج أن تتهيأ تعبيريا من جديد يا عوض.

كانت ردة فعل الدكتور بالنسبة لعوض جادة، بينما "عوض" أراد المزاح، وها هو مع تعليق الدكتور على مزحته بصرامة أطلت من عينيه نظرة حزن، لأن مزحته كصنايعي لم يضحك عليها الدكتور، بينما الدكتور في نفسه يقول"ياله من ذكي لو كان صاحب شهادة عليا"

ثم يضحك ساخرا ويهز رأسه وهو يتساءل"وماذا أخذ المتعلمون؟!"

كانت عينا عوض معلقة على الدكتور وهو يبتسم في سخرية، ظن أنه يسخر منه، فأسرها في نفسه.

6

لا زالت "هناء" تكثر من إلحاحها، لا زالت تطالب بحقها في البيت، تبكي وتتعلل بالظروف، زوجها ما عاد يستطيع الإنفاق على البيت، منذ أن فقد عمله بإحدى المصانع التي تدهور حالها، ولم يكفِي راتبُه الذي لا يتعدى ألفين ونصف في عمله الجديد كمحاسب في وكالة للخضار والفاكهة، شقتهم الستين مترا ما عادت تسعهم بعدما شبَّ الأولاد، تبكي كل مرة حتى أنني لا أستطيع التفرقة بين حزني عليها أم على نفسي، لا أستطيع التفريق بين حاجتي وحاجتها، حقها بالبيت طوق نجاتها، وطوق نجاتي بقاء البيت، ونصيب كل منا لا يشتري له بيتا، بل يشتري له تخبطا في الحياة، "هناء" شقيقتي الصغرى وأنا أحبها، لا أحب أن أحزنها أبدا، كما تعرف هي بمدى حزني على البيت، وهذا أيضا يجعلها تبكي، ثم بدأت "وفاء" هي الأخرى بالتلميح بحقها من بعيد منذ آخر مرة كنت في زيارتها، إنني أفهم تلميحاتها، الأمر بات مقلقا، وكلما قلت لهن بأن البيع ليس سهلا ظنت كل منهما أنني أماطل في أداء حقهن، لقد فكرتُ في كلام زوجتي بأن نبيع البيت ونأخذ حقنا، والله معنا، نريد أن نعيش بلا صداع ولا قلق بسبب هذا الموضوع، لكنني أفكر كل حين كلما خلوتُ بنفسي: ماذا لو تركَتْ شقيقتاي ليَ البيت؟، هل سيتشردنَ هُن وأولادَهُن بالشارع؟، كَلا، لكن الأمور ستسوء عندي أنا، هذا بيت الطفولة والعائلة، يشبه الوطن تماما، هن مرتاحات في بيوت أزواجهن، الرجل دائما هو من يتحمل الأعباء كلها، أولاده، زوجته، أمه وأبيه

في كبرهما، وحتى شقيقاته وأشقائه!، يعني ولنفرض أن كل واحدة منهما أخذت حقها وصرفته بأي وسيلة، ثم لا قدّر الله طُلقت إحداهُن، أين ستذهب سوى لأخيها الذي هو امتداد لأبيها بعد موته!

لكنني أعود لأقول متصبرا: إنه حقهن الذي قضى الله به، وأقول ربما لو فعلتُ ما أمر الله لرزقني ووسّع عليّ.، ثم أفكر، كيف سيوسع الله رزقي و يعوضني بيتا مثله؟، إنني موظف فحسب، أتقاضى ما لا يكفي احتياجات بيتي؟، ثم أجدني أقول بعد تعب: الله المستعان.

بالفعل لقد عرضتُ البيت للبيع منذ فترة طويلة، لكنْ أين المشتري؟، لا أحد، الكثيرون يعرضون عقارات للبيع لا يجدون لها مشتريا، الزبون الذي يأتي كل عدة أشهر يتعلل بالمساحة، أو بالحي الذي لا يروق له لمجرد أن انتبه للعب الأولاد في الشارع وجلسة بعض النساء أمام بيوتهن ودكاكينهن، كأنه جاء معتقدا أنه سيسكن بالتجمع الخامس مثلا، أو خمَّن بأن بوابة الحي سيفتحها حارس بزِيٍ أمني!، سبحان الله، ثم يخرج الزبون من عندي ليذهب عند جارنا أستاذ "سيد" الذي يعرض بيته للبيع أيضا، ثم يمضي ولا يعود كما لو كان قد أتى لا ليشتري بل ليفقع مرارتنا، لا شيء يباع بهذه البلد، حتى الأشياء التي يمكننا بيعها والاستفادة من ثمنها أصبحت لا تباع، وإن جاء زبونٌ سيقول بأنها لا تساوي، الناس وُضعاء جدا في هذا الزمان تجاه بعضهم في البيع والشراء، الآن ونحن عام 2020 صارت الحياة جامدة لا مرونة فيها، رغم أننا نسمع أرقاما فلكية في أسعار العقارات، كانت تلك الأرقام أيام

طفولتنا مهولة مثل جبل بجوار طفل، كان أفضل بيت بالمنطقة كلها هو بيت الحاج " عثمان شرف الحق "، تاجر قطع غيار سيارات، كان يعمل في بيع السيارات البيجو 504، و 404، يشتريها ب15 ألف بعد تعرضها لحادث ثم يصلحها وينفق عليها عشرة آلاف ويبيعها بثلاثة وثلاثين ألفا، كان أغنى رجل بالمنطقة ويسكن بأفضل مكان بها، بيته ست طوابق على مساحة مئة متر، سمعت والدي رحمه الله عام 1993 يقول بأن بيته يساوي 350 ألف جنيه، في وقت أن كان بيتنا الذي أنا فيه حاليا، والذي أعرضه للبيع ب600 ألف، كان وقتها ب25 ألف جنيه، لكن كان طابقا واحدا، يعني لو كان بنفس الصورة التي هو عليها كان سيكون سعره لا يتعدى 50 ألفا تقريبا، إننا في زمن الأرقام العجيب !، لا أخفيكم سرا لو أنني لا زلت أتقاضى الأربعمائة جنيه التي كانت هي راتبي منذ عدة سنوات ليست بعيدة جدا، وبنفس الأسعار وقتها، لكان أفضل، أفضل من أن تكون الأربعمائة أربعة آلاف وكل شيء زاد أضعافا تطغى على قيمة الجنيه، والدولار يرتفع بلا هبوط، كل شيء كان في الماضي له مذاق مختلف عن الآن، على الحقيقة والمجاز، لكن يا ترى هل سيوافق الحاج "عبد الستار" زوج أختي على ما سوف أعرضه عليه؟، أعتقد سيوافق، وربما لا يوافق، إنه يحب التجارة والربح الوفير وهذا سيجعله يرحب بالاقتراح الذي سأعرضه عليه، لكن ربما يقول في نفسه أنه لا يحتاج شيئا مثل هذا، سيما ليس مضطرا للمغامرة بشيء، زوج أختي من الناس المرتاحة التي لا تؤثر فيهم قرارات حكومة ولا غلاء أسعار ولا ركود

اقتصادي، ولا انهيار الجُنيْه، في هذه البلد مَن يملك مليونا هرب من الفقر، سيضعه بالبنك ويأكل من فوائده ولو كان بلا عمل حتى، الدولة تحتاج كل مليم من الداخل والخارج لإتمام مشاريع كثيرة، لذا فهي تعطي فائدة تفوق العشرة بالمئة وهذا رائع لأصحاب المال والكسل، أو من لا يملكون عزيمة المغامرة والتضحية في مشروع ما مآله الفشل، زوج أختي يضع بالبنك ما لا يقل عن خمسة ملايين، هذا ما خمنتُه من العقارات التي كان يمتلكها، بالطبع التي أعرف بها، لا شك هناك ما لا أعرفه، محظوظ طوال حياته، ميراث أبيه من مال وخبرة جعلته يعض على المال بأضراسه ويعرف كيف يجعل الألف ألفين، وعملُه كسمسار كان يُدِّر عليه مالا وفيرا، وما كان يقع إلا على الثقيل من الشغل والمصالح، ليس كهؤلاء الهواة الذين يظلون منشغلين شهرا كاملا خلف بيعة كي يحصلوا على خمسة آلاف يتقاسمها اثنان أو ثلاثة، أو كهؤلاء المنتظرين لشهر إيجار سمسرة من مستأجر ومالك وفقهما معا، بل كانت البيعة تصل لستة ملايين تتم عن طريق مكتبِه مباشرة بلا وسطاء من عشرين مكتب آخر كما يحدث مؤخرا، الأمور تبدلت، المكاتب الآن تحالفت لأجل أن يرمي لهم الحظ بيعةً يلتهمون عمولتَها كضباع تمصمص ما تبقى من فريسة لئلا تموت جوعا، ويظلون مترقبين من بعيد للسطو على أية فريسة تقترب ولو كانت في فم آخر ربما تعب لأجل الحصول عليها، ما يضير زوج أختي وأمثاله من ذلك الواقع مهما فسدَت فيه وسائلُ العيش؟!، بينما أصبح كل منا يصعد جبلا شاهقا لأجل التقاط كسرة خبز

من أعلى قمته، أصحاب الملايين في نعيم، البنك يعطيهم كل شهر آلاف الجنيهات وهم متنعمون لا يخرجون لا في حر ولا برد، وزوج أختي رغم اجتهاده طوال حياته من حلال وفي حلال استطاع بناء بيته خمس طوابق، يؤجرها جميعا، كل شقة على الأقل بألف وخمسمائة جنيه، بينما يسكن هو وزوجته وثلاثة عيال في شقته التي يمتلكها في إحدى أبراج وسط المدينة، أعرف قصة تلك الشقة بالتأكيد، لقد كان يمتلكها طبيبٌ متمرد، فر من البلد وسافر لأمريكا، فاشتراها زوج أختي بسعر مميز بما فيها من أثاث، إنه يعرف كيف يربح جيدا من كل اتجاه، لا أخفيكم سرا أنا أستبعد احتمال رفض زوج أختي العرض الذي سأعرضه عليه، لكن من يدري فالمنطق ليس هو الحاكم لتصرفاتنا على طول الخط.

.....

: العرْضُ الذي تَعرضه عليَّ الآن عُرضَ عليَّ مرات ومرات ورفضته، التجربة الملموسة تجعلني لا أسلم لهذا الكلام الفارغ بنظري، لأن غالبها مبني على وهم أو نصب ودجل، أنت تعرف أن عيون الأمنِ مفتوحة الآن على مثل تلك الممارسات، أنت حر، يمكنك الذهاب لو أردت مع هؤلاء الذين يجرونك للمجهول، لكن أنصحك بأن تفكر، فكر بعقلك في زوجتك وعيالك، أنت رجل تبلغ من عمرك سبعة وأربعين سنة ولست شابا طائشا، فكِّر ماذا لو جرى لك أي مكروه، ما يكون مصير زوجتك وعيالك؟، قال الحاج "عبد الستار" كلمته ومد يده ليُقرب العصير إلى "أحمد" ويقول له: اشرب

العصير، بدا كأنه يتعجل انصرافه، التفت "أحمد" تجاه الباب ونادى على شقيقته وطلب منها فنجان قهوة، ثم اعتدل في جلسته واقترب من الحاج "عبد الستار" وقال له: كلامك لا غبار عليه يا زوج أختي، لكن أقسم لك بأن الموضوع لا أشك فيه مطلقا، أنت لا تعرف الشيخ "عبد المقصود" جيدا، ربما تسمع اسمه لكنك لم تعاشره، لم تكن تلك مهمته من قبل ولم يشتغل بها، كما لم يكن شغلنا نحن أصلا، الموضوع كله جاء فجأة وبلا ترتيب، أراه رزقا ساقه الله إلينا لنخرج من الضيق إلى السعة

قاطعه الحاج وقال: نحن نحمد الله على كل شيء، لا نريد أكثر مما نحن فيه.، قالها بعفوية فنظر إليه "أحمد" نظرة فهمَها جيدا، كأنه يُذكره ببعض استغلالاته للناس بحجة التجارة والبيزنيس، واستطرد "أحمد" يقول له: ليكن بمعلومك أننا لا نحتاج لمزيد من الأشخاص، نحن فقط نحتاج لقليل من المال، بعض المال فقط لنبدأ في العمل، فبعد ثلاثة أيام فقط سوف يعود إليك مالُك أضعافا مضاعفة، أقول لك شيئا؟.، هنا كان الحاج ينظر إليه بجفنين قد تقاربا، وبعد نظرة مثبتة على الأرض ذهب عقله فيها بعيدا عاد إليه وقال: قل ما هذا الشيء؟

ابتسم "أحمد" وهز رأسه راضيا وقال: ثلاثة أيام فقط، بإذن الله سيعود إليك ما ستعطينا من مال وعليه قطعة أثرية ربما بقدر ما تملكه بالبنك!، ما رأيك؟، نحن نحتاج لشراء بعض الأدوات وأيضا كل واحد منا يحتاج أن يترك في بيته مالا كتأمين عدة أيام كي نرتاح ونطمئن من ناحية

بيوتنا، لأننا سندخل المكان ولن نخرج إلا بعد تنفيذ كامل مهمتنا، المشكلة ما نحتاجه لا يفوق العشرين ألفا تقريبا، أو حتى لو زاد عشرة إضافية، لكن في هذا الوقت تبدو لنا العشرين ألفا عشرين مليونا، لا أخفيك نحن فكَّرنا في أن نقترض من البنك لكن ليس هناك متسع من الوقت لانتظار إجراءات البنوك، الشيخ "عبد المقصود" أخبرنا بالأمر سريعا بشكل مفاجئ منذ أيام، وحدد لنا الموعد، من مساء الجمعة إلى الأحد تقريبا، الشيخ مطمئن جدا لمعلوماته الواردة من مصادره الخاصة، وهذه فرصة لا بديل لنا كي نرفضها أو نفكر برفاهية أو تردد، الجميع منشغل بمثل تلك المواضيع في كل محَافَظة، واغتنام الفرصة مهم مع ضيق الوقت، والكنز ليس بعيدا في العمق وليس بمساحات كبيرة كمقبرة كاملة.، قاطَعهُ متعجبا: ما حقيقة هذا الكنز؟.

وقبل أن ينطق "أحمد" بكلمة طُرق الباب طرقا خفيفا، سكتوا برهة حتى تضع الفتاة القهوة أمام خالها ومعها قُبلة على خده وترحيب، وانصرفت الفتاة نحو الداخل تتبعها أعين الوالد والخال، سرعان ما عادت أعينهما إذ جذبت الفتاة الباب خلفها لينظرا لبعضهما، وبصوت خفيض كرر الحاج "عبد الستار" سؤاله: ما قصة هذا الكنز؟

يرتشف "أحمد" من فنجانه رشفة طويلة واقترب منه ليخبره عن كل شيء بالتفصيل بعدما بدا له أن موقفه سيتغير.

7

السّاعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف صباحا بينما يجلس الدكتور "هاني" يفكر وحيدا، يلتهم سيجارته بعنف على كرسي في غرفة الصالون غارقا في التفكير وقت أن دخلت عليه زوجتُه وهي مدركة بأن شيئا ما يشْغله، اقتربَت منه في جلستها وسألته عما يستبد بدماغه ويُقعدُه هكذا شاردا حزينا؟

قال ساخرا: كل شيء على ما يرام كما تشاهدين!، قالت له بكلمات حانية: أنت يا هاني تحتاج لأن تهدّئ أعصابك، خصوصا بعد يوم عمل كامل تقف فيه على قدميك بلا راحة، نحن نحتاجك.

التفت الدّكتور بعينه محدقا بعين زوجته طويلا، زادت وتيرة القلق بداخله من كلماتها المُسَكِنة فحسب ككلام السياسيين للشعوب، قال لها: قولي لي يا "ميادة"، هل لو حدث لي أي مكروه، هل ستحزنون عليَّ، وكيف ستعيشون؟،واستطرد يقول: هذا سؤال رهيب جدا أشد من الموت كلما فكرت فيه!، شيء قاس لمجرد التفكير أن يموت الواحد منا ويترك أهله للمجهول.، قَطبت زوجته حاجبيها متعجبة من كلماته السوداوية المفاجئة، وقبل أن تنطق بكلمة استطرد يقول: وكأن الواحد منا قبل أن يموت يَلزمه أن يموت موتة اختبار وتَجربة، نعم، كي يرى فيها أهله دون الاتصال معهم، يراهم من خلف حاجز زجاجي، فيرى كيف يتصرفون؟ وكيف سيعيشون؟، ويرى المقربين منه ليعرف من سيحزن ومن لا يحزن، ثم إذا اطمئن على أهله

يمكنه الموت بأريحية !، وإلا فالموت والرحيل المفاجئ بلا إرساء قواعد حياة للمتعلقين في رقبة الراحل لن يكون موتا جيدا أبدا، حتى وإن مات على سجادة صلاة يتغنى به الأحياء وبخاتمته الحسنة كما نسمع كثيرا، الخاتمة الحسنة بالنسبة لي هي أن أموت وأنا مبتسم، نعم، هل تعرفين متى يحدث ذلك؟

دمعات هاربة من عين زوجة عاشت المعنى في عبارات زوجها، قالت بهمس: ماذا حل بك؟

قاطعها: اسأليني متى أبتسم عند الموت؟

قالت: متى نبتسم عند الموت؟!

قال وهو يداعب شعرها بأصابعه وابتسامة خفيفة مضطربة: عندما نوقن ونحن أحياء أننا تركنا أهلنا في أمان من الحياة.، ثم وضع قبلة على رأسها وقت أن أحاطت ذراعاها حول جذعه تحتضنه بقوة، ثم قالت له: لا ضمان في الحياة يا دكتور، ومن يموت في هذه الدنيا يوقن عند موته أنه كان غبيا إذ فكر فيها واهتم بها، كما تفكر وتهتم أنت الآن، آباؤنا ماتوا وتركونا فلم تأكلنا الكلاب، الله يجعلنا في صورةٍ ملائمة لمتغيرات الحياة، يهيّئ لنا المعينات على الحياة كي ننهض من جديد، الجميع في النهاية يعاني مهما كان شأنه، والإنسان في كَدَر دائما حتى لو على أتفه الأشياء، أنت كدكتور يحسدك البعض ويظنون أنك أهنأ عيشا وأفضل حالا، الكل في الدنيا سواء

من ناحية المعاناة، الكل في المجتمع الضاغط يتألم، صَدِّقني، نعم الموت راحة، غير أني أتمنى لو أنك عشتَ معي ألف سنة، أنا أحبك.

جذبها لصدره بقوة، أخذ يشمُّ رأسَها بحب، ثم استأنف كلماته بعدما استعاد هدوء نفسه قليلا:

بإذن الله سوف تتحسن الأوضاع قريبا، لن تُذَلّ أنفسَنا في أي عمل بأجر زهيد بعد ذلك، ولن أعمل ورديتَين أبدا في القادم، يكفي ثمان ساعات فقط شريطة ألا تكون ليلا، لأقضي معك الليلَ كله، إنني آمل كثيرا أن تنقضي تلك الظروف الصعبة، والتي جعلت الحياة ضربا من الجحيم، نحن بالعالم الثالث نتوهم العيش، هل هذه حياة؟!، ليس فقط المادة، بل كثيرة هي الحقوق الطبيعية المنزوعة عنا، كل شيء يدفعنا للألم من دواخلنا، ولكي يكون أحدُنا في أمان ولو قليل يجب أن يتخلى عن جزء كبير من حريته وكرامته، ويُذل نفسَه بالتخلي عن مكوناتها الأساسية ويستبدلها بمكونات صناعية مدمرة على طول المُدة، لأننا في معترك شديد القسوة، تفوح منه أنتان النفوس الرديئة، ولا أعرف يا ميادة، وكثيرا ما يراودني السؤال ذاته، هل تخلى عنا الله؟، أو يئس من صلاحنا لدرجة أن وكَلَنا لبعضنا وأنفسِنا لتلك الدرجة؟!، هل استبدلنا كما توعد في القرآن باستبدالنا؟، أم ماذا حدث بالضبط؟!

نظرَتْ إليه زوجتُه في دهشة وهي تبتسم له ابتسامة مُحب، قالت له مداعبة: منذ قليل كنتَ سوداويا تتكلم عن الموت، وفجأة تتكلم عن رغد

الحياة ورغبة المتعة في السهر والسمر، ثم تنقلب للوجودية وتسأل كفيلسوف، ثم لم يبق لك سوى القول بعبثية الحياة، ما بك يا دكتور؟!

ابتسم لها ابتسامة خفيفة وأخذ يحك ذقنَه بأصابعه وقال: أليست غريبة تلك الحياة يا "ميادة" كأنها حاكم ظالم؟، لكنه يبطش بكل ضعيف وفقير بقوة ويسحقه بقدمه، بينما تتودد لأصحاب الحيلة والقوة وتجاملهم وتعطيهم المزيد والمزيد من وسائل الراحة، لكن أيضا أفكر بأن ذلك ربما كأسلوب مراوغة واستدراج، حتى تبدو لهم الأوضاع آمنة وقد مُنحوا بعض المزايا وظنوا أن الحياة تحابيهم، وبينما هم آخذون في ذلك إذ تعصف بهم الأقدارُ فجأة، لكن لماذا؟، نحن نعيش أياما سيئة للغاية، الحكومات يدور عملُها بعيدا عن حاجتنا التي في رأس القائمة، آاااه من الفوضى، مع كلٍ فالحياة ظالمة، إنني أفكر كثيرا ويقلقني جدا هذا التفكير؛ لأنني أحيانا أطأ مناطق محرمة لا آمن أن أعود منها بسلام، فأتساءل: هل خلقنا الله ليخيرنا بين جحيمين؟، إما جحيما مؤقتا في الدنيا أو جحيما أبديا في الآخرة؟

أي معنى هنا لكوننا مخيرين؟، نحن مجبرون لأننا محصورون بين خيارين أسوأ من بعضهما، ولو كان علينا كعقلاء مميزين بالعقل فسوف نختار اختيارا ثالثا خارج المنهج، هل لأننا لا حول ولا قوة لنا فالله يفعل بنا ما يشاء بحجة أننا عبيد له يجب أن نصبر على كل شيء، ويظل ينظر إلينا من أعلى ونحن معذبين هكذا في تلك الحياة؟!

تعرفين وأنا ابن عشر سنوات كانت الظروف سيئة جدا على أهلي، حد أنني لم يكن عندي سرير أنام عليه، كنت ألتف ببطانيتي على أريكة قاسية تؤلم عظامي، وفي إحدى المرات قلت لوالدي في حنق وقد علا صوتي قليلا:

لماذا أنجبتَني قبل أن توجد لي سريرا؟ لماذا حين لم يكن لي سرير أنجبتني دون أن تفكر أين سأنام؟!

أتذكر حينها كيف نظر إليَ والدي بذهول صامتا، ثم انصرف ولم يرُد، وأتذكر ما قالته لي أمي بعدها، لم تكن كلماتها ردا على سؤالي، بل سألتني لماذا جرحتَ شعور والدك لهذا الحد؟، أتدرين ما المشكلة يا "ميادة"؟، المشكلة هي أننا لم يكن لنا رأي في وجودنا هنا، كل شيء حدث رغما عنا، كل شيء نحن مجبرون عليه، الزنزانتان أسوأ من بعضهما يا "ميادة"، فلماذا يسخر سجَّاني مني كلما تألمت؟، لماذا يقول لي كل مرة يراني أبكي من الألم أن هذا هو اختياري؟، هل كان لي أن أختار الحرية؟، بالطبع لا...

قاطَعتْه قائلة:

حبيبي هون قليلا على نفسك، وابعد عنك وساوس الشيطان، ودعك من كل شيء يؤرقك دون استغراق، ألستُ وأطفالك بجانبك؟، أوليس ضوء ابتسامتي يضيء لك عتمة الطريق المظلم في عينيك؟، ألا يكفيك يا عزيزي أنني أحبك ولا أحب أن أراك على هذا الحال؟!

كل ما أرجوه هو أن تكون بجانبنا، ثم كل صعب عسير بعد ذلك يهون.

لكن الدكتور بأسى مَحَضَه في تلك الساعة نظر في عينيها وقال: أنا لستُ مرتاحا، أشعر بألم نفسي رهيب، لا أنا دكتور أعيش كما الأطباء في طبقة أعلى، ولا أنا شخص عادي يستطيع تحسين دَخْله بتوكتوك أو محل لبيع الطعام كما يفعل الناس..!

الخيبات وسوء الحظ يا ميَّادة، مع كثرة المَلَكات لدى المرء كفيلة بأن تُحوّلهُ لدميةٍ أو كائن منزوع الإنسانية، يشتد لديه الصراع بشكل قاسٍ حينما يحس ببوادر تَجمُدِهِ، ومهما سعى للمحافظة على أدواته الإنسانية الرقيقة بجهد جهيد، إلا أنه سيصل لنقطةٍ تخور فيها قواه، فإذا به من الإحباط يهوى على ركبتيه واضعا وجهه بين كفيه ليبدأ بترانيم البلادة، ومن ثم الدخول إلى منطقة الخمول الجسدي والنفسي والروحي، تُبدله الظروف الأقوى منه والّتي صارعها بشجاعة ومثابرة، حتى يعي بأن كل هذا بلا جدوى، وألا شيء يستحق إذًا مزيدا من الصراع بأنواعه، والعزلة والانطواء وقتئذ قرار لا شك فيه ولا تردد، وتبدأ معه رحلة عذابات جديدة تفقده بعض الملل، فقط لتَغير أسباب العذابات، لكن شيئا من معاناته لن يتزحزح عنه...

قاطعَته لما رأته يستغرق في تلك المعاني السوداوية، وقت أن نهضت واقفة وهي تقبض على يده وتقول له: غدا سنكون بخير بإذن الله يا هاني، ولن تصل الأمور لتلك المرحلة، لا تحزن، هيا قم لسريرك، سأفعل لك ما يزيل تلك الكآبة عنك يا دكتور، ثم لتنَم جيدا وترتاح، واترك الأمر على الله، وعليك أن تقرر من الآن أنه من الغد سوف لا تترك صلاة، الصلاة مريحة

للنفس يا دكتور أكثر من كل الأدوية التي تتعامل معها طوال النهار، وتبعد وساوس الشيطان، وانظر لنصف الكوب المليء، وركز على جماليات الحياة الموجودة بلا شك، انظر للخارج المحيط و للشوارع يا هاني، فيها جماليات كثيرة، الحكومة غرست الأشجار ووحدت ألوان البيوت، ورصفت الشوارع و..

قاطعها: الشوارع مثل فتاة مثيرة لكن لا لذة فيها، جف شيئها من رطوبته، وترهل ثديها فلا حليب فيه يطعم الأطفال، مجرد شكل، شكل فقط، خَلت الحياة من أي مضمون، وصار الشكل هو المضمون يا ميادة، أعتقد بأنه بعد كل تلك الوقائع وتكرارها دون فائدة، يجب أن نرحل جميعا لله كجراد منتشر، هذا أفضل بكثير من البقاء على ظهرها مثل كلاب سعرانة.

قالت له، وحتى لو...، لكنني لا زلت رطبة بين يديك وتهملني بالانشغال بمجازاتك الكئيبة، وتتفنن في عزف موسيقاك الجنائزية يا دكتور، كن واقعيا بقليل من التفاؤل على الأقل، لا تكن منزوع التفاؤل هكذا يا حبيبي، (ضحكَتْ بغنج)، نظر إليها بامتنان وهي تكنس بأهداب عينيها دخيلته من أيّ ألم مكبوت، وتربت بعذب كلماتها على قلبه، فقد كانت "ميادة" كوْشمٍ موسومٍ على صدرِه، لا زالت يدُه بيدها، استسلم لها ومشى خطوات خلفها نحو غرفة النوم.

8

في تلك الليلة حلَّ ضيف جديد على تجمع الأصدقاء ببيت الحاج "سيد"، المكان نظيف مرتب على أكمل وجه، تفوح رائحة البخور بعبق العود في المكان، الساعة التاسعة ليلا، وقد اتخذ كل من الموجودين مقعدا، تتوسّطهم طاولة عليها أكواب الشاي، الشيخ "عبد المقصود" بجانب الحاج "عبد الستار" عن يمينه، وعن شماله يجلس الأستاذ "أحمد" شقيق زوجته، والحاج "سيد" في قبالة وجهه، بينما المعلم "عوض" و الدكتور "هاني" في قبالة بعضهما، وانطلقت كلمات عشوائية من الجميع بين الترحيب والتعليق على أي شيء عارض، وحين التفت المعلم "عوض" ببصره تجاه الشيشة الموضوعة في الركن هناك، علَّق الحاج "سيد" وقال: عرفنا أن الحاج "عبد الستار" لا يدخن، وهو ضيف علينا وإكرام الضيف ألا نتسبب في أذاه.، وكان رد الأخير أن قال: لا بأس أنا لن أطيل عليكم لأني مرتبط بموعد بعد ساعة وسوف أترككم على راحتكم.

يرد الجميع كل بكلمات الترحيب وأنهم سعداء بحضوره، ما هي إلا دقائق حتى بدأوا في المُهم، وكان الشيخ هو أول من بدأ بالحديث، وأخذ يقص القصة كاملة على مسمع الحاج "عبد الستار"

: أنا معالج روحاني، موظف بالأوقاف إماما وخطيبا، منذ ما يقرب من خمسة وعشرين سنة وأنا منشغل بالعلاج من حالات المس الشيطاني والسحر، لكن مع الوقت والقراءات استعنت بالجن في الشيء المباح، لا

أخفيك كان الأمر بالنسبة لي في البداية مقلقا جدا، وجدت أنه لا بأس في الاستعانة بهم في الخير كما أفتى بذلك بعض علمائنا، والحمد لله لم تُمس سمعتي بسوء طوال حياتي كهؤلاء المدعين الدجالين، وما كنت أعالج إلا من ثَبت فعلا أنه مسحور أو به مس، هذا بعد أن أنصح أهل المريض بزيارة الطبيب العضوي أولا لإجراء تحاليل وفحوصات، ثم لو لم يتبين شيء من تلك الفحوصات كنت أنصحهم بالذهاب إلى طبيب نفساني أيضا للتحليل فيما وراء الأعراض، فربما به مرض نفسي أو عقلي، هذا يحدث كثيرا، ولكن لو تبين أنه لا شيء بعد ذلك ولم يصل الأطباء لحل، بينما الحالة تعاني بشدة، هنا كنت ألجأ لعلاجها بالرقية الشرعية، وأستعين بالجن على الجن، أنتم تعرفون بأن الحديد لا يُفل إلا بالحديد، وهو كاستعانتي بالإنسي على إنسي آخر ولا أرى في ذلك شيء، غالب شغلي كان خارج المنطقة بل المدينة بالكامل، ولست من هؤلاء التجار الذين يتربحون من آلام الناس رغم عيشي على الكفاف، فلا أظهر على تليفزيون ولا لي علاقة بالسوشيال ميديا مطلقا، وتعرفون أنه لو أردت أن أصبح مليونيرا في وقت بسيط لفتحت باب الميديا ومن ثم للفضائيات تستضيفني، الناس في بلدنا يحبون الشائعات، ويعلون من شأن من يخدعهم ويستخف بهم لمجرد أن يبتسم لهم ويبدي أنه صاحب عمل مهم، وأنه جاء ليخلصهم من ضغوطات الحياة، ما بالك في زمن فيه الموت أرخص بكثير من سِعر العلاج وكشوفات الأطباء، حيث تكاليف جنازة بسيطة أرخص من تكاليف علاج مريض مرضا عاديا، فالناس يتعلقون بمن

يبدي لهم أنه ناصح أمين، سيتنازلون عن عقولهم ويمنحون لهم التوكيلات العامة للتفكير نيابة عنهم، خصوصا لو كان الموضوع يخص الغيبيات والعالم الموازي، ومع ذلك أنا مهتم بالقيمة فقط وأمشي بجوار الحائط، وجعلت علمي لله، والحمد لله سمعتي مثل الذهب، ولكن نقطة التحول كانت بسبب أن في إحدى مرات العلاج في قرية قريبة تبعد عن هنا عشرة كيلومترات تقريبا، كانت امرأة أربعينية تُسمى "بُشرى"، جميلة جدا، أنتم تعرفون جمال النساء بالريف، جمال لا ينسفه الفقر بالطبع مهما اختفى خلف ستارِه وتعفر بغباره، كانت ترى أشياء تتحرك في الظلام حولها، تسمع أصواتا تهمس بأذنها، وتشم بالبيت روائح منتنة تشبه رائحة القبور إن انفجرت بها بطون الموتى الجدد، شعرُها الطويل لردفيها يتساقط بكثرة كما تقول، لقد أوشكت المرأة بالفعل على الجنون، كانت زوجةً لرجل يُدعى "عبدالباسط"، فلاح ويعمل مدرسا بالمدرسة الابتدائية، لقد أنفق عليها الكثير من المال بعدما باع قيراطين من الأرض لأجل علاجها، تنقل بها بين طبيب عضوي لطبيب نفسي، من شيخ هنا إلى قسيس هناك، ولا جديد، حتى جاءني مرة وأنا في المسجد بعد صلاة العصر، وعرَّفني بقصته وأنه عرفني عن طريق أحدهم بقرية مجاورة لهم، وكان معه ملف ورقي فيه الكشوفات الخاصة بزوجته "بشرى"، حددنا موعدا، وذهبتُ لمكانه في ذلك الموعد وكنا في وقت الغروب، نزلت من ال " التوكتوك "وكانوا في انتظاري، دسَّ الرجل يده في جيبه وأعطى السائق عشرين جنيها، واصطحبني معه

للدار، كنت قد شاهدت مبنىً وسط الزروع على امتداد البصر، أرض المبنى مرتفعة عن سطح الأرض كأنها تلّ، سألته عن ذلك المبنى ونحن نشرب الشاي قبل أن أبدأ في علاج الحالة، فأخبرَني بأنه كان مِلكا لبعض الفلاحين منذ العهد العثماني، ثم استخدمه الإنجليز لأغراضهم ومارسوا فيه البغاء والقتل والتعذيب، المبنى تم ترميمه في كل مرحلة من الزمن، وكانت آخر مرحلة في زمن الاحتلال، ولما حدثت المواجهة بين المستعمرين وبين شعب المنصورة فروا من الفلاحين و اختبأوا بالمبنى، أشيع بأنهم لم يخرجوا حتى الآن، اختفوا تماما، ومن ذلك الحين لم يجرؤ أحد على دخوله ولا المرور بالقرب منه إذا غربت الشمس، حتى الفلاحين ينهون أعمالهم في حقولهم مع العصر إن كانت بالقرب من ذلك المبنى، ولا يكف بعضهم عن ترويج بعض الشائعات، أو ربما حقيقة، الله أعلم..

قاطعه "عوض" وقال: هذا المبنى الذي سندخله يوم الجمعة المغرب ونظل فيه ثلاثة أيام تقصد يا مولانا؟.

الدكتور "هاني" غارق في التفكير، والحاج "سيد" مطمئن لثقته الكبيرة بالشيخ الذي أخبره بأنهم آمنون، بينما الحاج "عبد الستار" تبدو على وجهه علامات الاستغراب، ينظر للجميع قبل أن ينطق ويقول: وما السبب أنك مطمئن يا شيخ مع كل تلك المواضيع المثيرة التي تحكي عنها؟

يستطرد الشيخ ويقول: لأن ما حدث بعد ذلك هو ما جعلني مطمئن.

الجميع في صوت واحد: ماذا حدث؟

يقول الشيخ: في أثناء جلوس تلك المرأة أمامي نظرتُ في عينيها عرفت بأنها ملبوسة من الجن، ومن أول ما بدأتُ في القراءة عليها أخذَت تزمجر وتصيح بصوت غريب وبلغة غريبة، كان زوجها معي في الغرفة، حينها استعنتُ بالجنّي الذي معي، وما أطلعني عليه ذلك الجني المعاون كان غاية في الغرابة، فتلك المرأة معشوقة من مارد يُعد هو رئيس الجن في ذاك المبنى المهجور الذي يبعد عنهم حوالي ستمائة متر، عرفتُ بأنها منذ سنة كانت تعمل في الحقل بالقرب من ذلك المبنى، وقالت لي بأنها لم تكن تعتقد فيما يشاع عن سر المبنى، وأنها في يوم من الأيام وهي تعمل في جو لاهب وجَدَتْ الدم يسيل من بين فخذيها، عرفَتْ أنه الطمث قد جاءها، قالت: فتطرفتُ بعيدا عن الأعين، وخلف شجرة كثيفة خلعتُ ثيابي من أسفل، وتدليتُ في الجدول الصغير لأغسل نفسي ومن ثم أضع قطعة قماش قطعتها من الإيشارب القديم على رأسي.، تقول بأنها في نفس الليلة رأت في منامها كوابيس لم ترها من قبل، وظل ذلك معها فترة طويلة قبل أن تحكي عن حالات مضاجعة تحدث معها وهي نائمة بقسوة، ثم تصبح لترى آثارا مثل كدمات وخدوش على جلدها، بالطبع في تلك الفترة تبتعد عن حضن زوجها ولا ترغبه، وإن حدث ذلك يكون عقابها القاسي من الجني ينتظرها إذا خلت بنفسها أو نامت، بالتأكيد هذه حالات عشق معروفة، والقصص فيها كثيرة، وهي ليست بغريبة عليَّ، فقد قابلت الكثير من تلك الحالات، لكن المثير للغرابة فعلا هو أن ذلك المارد الساكن في المبنى هو من رآها وتطلع إليها

فأعجبته فلبسها، كأنه فاسق يتطلع لبياض جسم امرأة بفخذين يشعان وسط ماء الجدول..!

سأله الحاج "عبد الستار": كيف عرفت أنه مارد جن المكان يا مولانا؟

قال الشيخ: أخبرني معاوني بذلك، لا تنس بأنهم جميعا يرون بعضهم ويعرفون بعضهم، وفي لمح البصر يذهب الجني لأي مكان بالعالم ويأتي يخبرك بتفاصيله، هذا موجود في القرآن في قصة سيدنا سليمان وبلقيس ملكة سبأ، لما قال (أيكم يأتيني بعرشها) سورة النمل، وكان يخاطب الجن، الله سخر له الجن من كل بَنَّاء وغوَّاص، الكل يخدمه ويعاونه، (قال عفريت من الجن أن آتيك بها قبل أن يرتد إليك طرفك).

قال الأستاذ "أحمد": أكمل، أكمل، وماذا حدث يا مولانا مع هذه المرأة؟

قال الشيخ: ظللتُ عشر جلسات معها، كل أسبوع جلسة، في كل جلسة أقرأ عليها وأسقيها من ماء مقروء عليه، أدلق في أركان البيت ماءً مقروءا عليه أيضا، أنصحها بالاستحمام بنفس الماء ولا تلقيه في المجاري، وكنت أكتب لزوجها طلبات ليأتي بها من عند العطار كي يخلطها ببعضها ويدهن لها مواضع الألم الذي يأتيها، في الجلسة العاشرة كلمتُ الجني الذي معها، وبعد حوار دار بيني وبينه لم يُطق أن يصبر على العلاج الذي كان يؤلمه بشدة، وهنا أخبرَني الجني أنه سيكافئني بشيء عظيم لو تركته في جسد المرأة دون ملاحقته، لم أهتم بما سيعرضه عليَّ بقدر اهتمامي بأن يترك المرأة في حالها فتلك مهمتي، لكنه أخبرني بغلظة بأنه لن يتركها إلا جثة هامدة، بل

وسيلاحق أبناءها، رأيت شرا وعنادا من هذا المارد الجني ما رأيته من غيره من قبل، على الرغم من أنني أعرف بأن أشد وأقسى حالات المَّس هي المبنية على عشق، إلا أنني متفاجئ من تلك الحالة بالذات، لقد عالجتُ حالات عشق من قبل، لكن كان الجني العاشق من عامة الجن، فكنت أرسل الجني المعاون له لكي يتفاوض معه ويُخوفه من مصيره المحتوم معي، أو يهدده بأن يذهب لقبيلته ويخبرهم بما هو عليه من زنا مُحرَّم مع إنسية ضعيفة ويستخدم سطوته عليها، لكن هذا لو كان العاشق مسلما، بل لو كان الجني العاشق مسلما ربما من موعظة بليغة يترك الجسد بشكل أسهل من استجابة إنسي يعشق امرأة، لكن في حالة تلك المرأة وقفتُ أعلن ضعفي وجهلي، وقلت سبحان ربي القائل (وفوق كل ذي علم عليم) سورة يوسف.

قالوا بشغف: أكمل يا مولانا وماذا بعد ذلك، أنت ما حكيت لنا تلك التفاصيل من قبل؟

قال: أيقنت بأن المرأة ميتة لا محالة، بل ربما يتم إيذاء أهلها، فجلست للتفاوض المؤقت لحين الاستعداد له، وطلبت منه أن يرفق بها من سطوته عليها، يعني لو كانت في عمل يتركها تكمل عملها، وأن يتركها تنام في حضن زوجها كل خميس كعادة الفلاحين، موضوع أن يتركها تنام في حضن زوجها كان شاقا عليه جدا، وما يثير التعجب شدة غيرة الجني العاشق على معشوقته، أشد من غيرة البعض من الإنس على بناتهم وزوجاتهم..!، وبعد كلام كثير ووعيد مني وافق على أن يتركها ليلة الخميس بحضن زوجها، ذلك

الزوج البائس الذي حُرم من زوجته التي يحبها منذ عدة أشهر، كلما اقترب منها فقط كان ذلك العاشق يعذبها أشد التعذيب، يؤلمها في أسفل بطنها وفي عظامها ورأسها فتتلوى كسمكة خرجت من الماء للبر، في المقابل ذلك الجني أخبرني بأن تحت المبنى كنز كبير، وأنه سيسمح لي بدخول المكان بشكل آمن للحصول عليه، بشرط أنني لا ألاحقه في معشوقته، فكرتُّ في أمر الكنز، وفي أمر المرأة المسكينة، ضَعُفتُ للحظات كإنسان ولا أُخفِي عليكم، بل فكرتُ في أنني ربما أفشل في علاجها، وحينها سوف تموت على يد ذلك المارد ببشاعة، وسأخسر العرض المغري، ولكني فكرت في شيء لا يجوز أبدا البوح به حاليا، لأنني لو بحتُ به ضاع كل شيء وخسرنا المرأة والكنز!، ولذا فسوف يبقى سرا في نفسي حتى نحصل على الكنز.

قال "عوض": ولنفرض يا مولانا أنه يستدرجك لهذا المكان كي يقتلك ويتخلص منك !

قال الحاج "سيد" له: قم يا معلم وضَعْ البراد في الكهرباء وجهز لنا دور شاي خلي القعدة تحلو.

فنهض "عوض" ليضع الماء بالبراد، مدَّ الأستاذ "أحمد" يده بالأكواب على الصينية يناولها ل"عوض"، قال "عوض" حلكِ يا مولانا نحن نسمعك .

استأنف الشيخ: الجن لا يستطيعون فعل كل شيء، لا يستطيعون فتح مكان مغلق، ولا يستطيعون الهروب من أي جسم تشكلوا فيه لو قبض

عليهم إنسان وقتلهم، لذلك لا يتشكلون في صورة قطة أو كلب أو إنسان أو أي شيء إلا للضرورة..

: يعني إيه يا شيخنا ؟

: يعني مثلا لو تشكل جني في جاموسة من باب اللهو ودخل الجزار ليذبحها فحتما سيذبح الجنيَّ وهو في صورة الجاموسة ولا يستطيع الهروب لأنه قد أخذ قانون ما تشكَّل فيه.

قال الدكتور: ولنفرض ذبَحها الجزار وباعها وأكلها الناس، هل بذلك أكلوا لحم الجن؟!!

: نعم، وهذا حلال.

نطق الدكتور وقال: هذا كلام لا يدخل الدماغ أبدا.

بينما علَّق الحاج "عبد الستار" وقال: قل هذا بخطبة الجمعة يا مولانا.

فضحك الشيخ وقال: لو حصل وقلت هذا سأنال شهرة واسعة، لأن الصحف والبرامج سيقولون بأن أحد الشيوخ يحلل أكل الجن، هاهاها.. وأخذ يقهقه، وضحكوا بدورهم جميعا.، وضع "عوض" الشاي وقال: أكمل يا مولانا أكمل، القعدة الليلة دي في السحاب.

نظر الدكتور له باستخفاف وقال: فعلا في السحاب.

قال الشيخ: يبدو أن الدكتور يستهزئ ولا يُصدِّق!، ألم يقرأ سورة الجن؟،الجن طوائف مثلنا، فيهم العنيد والضعيف والقوي والخبيث والصالح والطالح...، فكما أن هناك إنسي من الممكن أن يرتكب جريمة من

أجل معشوقته، كذلك هناك إنسي يخاف من تبعات أمر ما، فيتعقل فيه، كذلك الجن، الجني أمام الشيخ المعالج المُحَصَّن يكون مثل طفل مهما حاول إبداء قدراته ليُرعبَ المعالج، فيُحَمِّر عينيه، ويصيح، ويتشنج، ويفتح فاه مثل أسد يزأر، وغير ذلك من أساليب كي يشعر برعب المعالج منه، فلو شعر بذلك فسوف يؤذيه، وإلا فسيعود ذلك الرعب على الجني نفسه من المعالج، ثم هو ليس بحاجة لاستدراجي لمكان مهجور كي يقتلني مثل بلطجية الإنس كما يتوهم "عوض" المسكين، إنه يخشاني رغم عناده، وعناده أتى من خبرته ومكانته كمارد، وأسهل شيء هو أن يفتدي نفسه ومعشوقته بكنز لن ينتفع به الجن، ويعرف أنه ينفع الإنس.

نطق "أحمد" وقال مكررا كلمة الشيخ: ينفع؟، هذا يغير مصائر الناس وينقلهم من حياة لحياة أخرى، يبدو أن هذا المارد محترم ويعرف ظروفنا التي نمر بها جميعا.

رد الحاج "سيد" وهو يكتم الضحكة خلف شفاهه: اسأله كدا يا مولانا عنده زبون يشتري البيت؟

قال "أحمد": أقسم بالله فكرة عبقرية، وأخذ يضحك

ضحك الدكتور وقال: الغريبة انكم الليلة تركتم شرب الدخان، هي الدماغ دي من ترك الدخان؟! وابتسم في لهو بالحديث

رد الشيخ وقال: والله العظيم انتم مساكين، أنا نيتي خير للناس المحتاجين.

قال "عوض": أتمنى أن يكون الموضوع ليس مجرد حلم يقظه، أنا أشعر بأنني أحلم..!

قال الدكتور ولا زالت في نفسه ريبة: لكن يا مولانا أنا أسمع أن تسخير الجن محتاج إن الشخص يكفُر ويقرأ القرآن بالمقلوب ويفعل أشياء كُفرية عياذا بالله!

رد الشيخ: كلامك صحيح يا دكتور لو سيتم الاستعانة بالجن في أعمال السحر، لكن الجني الذي معي مؤمن ويساعدني في علاج المرضى، هو لا يقوم بأعمال خارقة من التي يتصورها الناس، بل يأتيني بمعلومات تنفعني في العلاج فقط، هي حالة نادرة لكنها حدثت معي بفضل الله.

قال الحاج "عبد الستار": غرائب وعجائب القصص، والله أنا محتار، لكن أشعر بمنطقية القصة، ثم ينظر في ساعة يده ويقول: يا خبر!، نسيت الموعد، وانتفض واقفا وقال: المهم أنا معكم بالمال وإيجاد طريقة تصريف الكنز، لكن لن آتي معكم لهذا المبنى المهجور أبدا!

خرج الرد من الشيخ ومن الحاج "سيد" ومن "أحمد" في نفس الوقت: ونحن موافقون على بركة الله.

9

وسط عدد كبير من الأشجار بينها أشجار نادرة، وغطاء نباتي كثيف، تُشكل حدائق استثنائية الجمال، كفاتنة مثيرة على ضفاف بحيرة طبيعية في شمال العاصمة الإيطالية روما، تترائى لك أحد أجمل مقرات العائلة المالكة السابقة فى إيطاليا، والذى أصبح مقرا للسفارة المصرية منذ منتصف القرن الماضي إلى أن تم شراؤه من الحكومة المصرية في عام 1994 بمبلغ 14 مليون دولار، يستوي جالسا على مكتبه الفخم سيادة السفير المصري ممسكا بسماعة الهاتف على أذنه يتلقى خبرا يبدو مُهما.

وبالجهة الأخرى وبالتحديد مبنى شرطة السياحة والآثار بمدينة (نابولي)، يقف بعض أفراد الشرطة الإيطالية أمام حاويةٍ مليئة بالقطع الأثرية، تُقدر بما يزيد عن ثلاثمائة وخمسين قطعة منتمية لحضارات مختلفة، وعلى الفور يتم إبلاغ السلطات الإيطالية بما حصلوا عليه ليتم الاتصال بالسفارة المصرية وإبلاغهم بحصولهم على ما يقرب من ستين قطعة أثرية عبارة عن تماثيل وفخاريات وبعض عناقيد وعملات وقطع ذهبية تبدو أنها تعود للحضارة المصرية، وكخطوة أولى طلب رئيس لجنة الآثار المستَرَدَّة بالقطاع الثقافي بمبنى الخارجية المصرية صورا لتلك القطع لفحصها، وعلى الفور أرسلت شرطة الآثار الإيطالية صورا على اسطوانة مدمجة لمبنى السفارة المصرية لإرسالها للقاهرة.

وفي القاهرة دار ذلك الحوار بين المسئولين

: الصور توضح أن القطع فعلا مصرية وأصلية، منها ما ينتمي للعصر العثماني ومنها من العصر الفرعوني، لكن واضح جدا أنها آثار خرجت من الأرض وتم تهريبها، ليست مسروقة من المخازن أو المتاحف.

: بالضبط سيادتك، لكن كيف خرجت؟

: هذا ما سنبحث فيه من اللحظة، أبلغ المتحدث الرسمي أن يقوم باتصال هاتفي لنائب قائد الإدارة العامة لشرطة الآثار والسياحة بالخارجية الإيطالية لنعرف التفاصيل، أريد تفاصيلا دقيقة، معلومات عن الحاوية، ومن أي ميناء خرجت من مصر ومع من ؟

: تمام سيادتك.

10

عصر يوم الجمعة، أصوات الباعة الجائلين تعلو سماء منطقة المؤسسة، تتدفق الأعداد الغفيرة من النساء نحو العربات لشراء الخضار والفاكهة، تنتقي النساء حبات الفاكهة المستوية بسعر زهيد كي تصنعها عصيرا بدلا من الحرمان الكلي البديل، المحلات في المدينة يدفعون لها إيجارات عالية، وبالمؤسسة إيجارات تُعد زهيدة إذا ما قورنت بوسط المدينة، ومع كلٍ يشكل الإيجار عبئا على التجار الصغار، بالطبع يدفعهم بند الإيجار للبيع بأسعار مناسبة، وذلك لضمان دفع الإيجار من الربح، أما الباعة الجائلون لا يدفعون ذلك، حتى حميرهم التي تجر العربات توضع أمامها آخر النهار الخضار والفاكهة المتعفنة والتي فسدت من الشمس، تُعد خسارة لهم بالطبع لكنهم يوفرون ثمن علَف الحيوان، وكأنهم يبيعونها لحميرهم عنوة، الباعة الجائلون بضاعتهم غالبا رديئة لكن ليست أردأ من ظروف الناس ومذلتهم بالطبع، في بيت الحاج "سيد" يتجمع الأصدقاء كالعادة، الجميع على أهبة استعداد للانطلاق نحو القمة أو الموت، لا منطقة بين هذه وتلك، وقرروا الهروب من طاحونة النمل، ورفضوا أن يعيشوا نملا إذ لا سُكَّر هناك يأكلونه، ودَّعوا عائلاتهم، وكل منهم تعلل بما تعلل به كي يغيب ثلاثة أيام، والشيخ "عبد المقصود" بعد خطبة عصماء عن (حرمة المال العام في الإسلام) في صلاة الجمعة يُعِد عُدته ويصف صفوفه كقائد فرقة تتأهب لمعركة، معركة حياة وأي حياة !، أما لو كان الموت بديلا

فهو أخف وطأة عندهم من عيش لا يتكافأ مع إنسانيتهم، الجميع مدفوع نحو المجهول لمجرد أنه يتخيل أن في نهاية النفق المظلم المرعب باب نحو الفضاء اللا محدود، يقول أحدهم: ما بحثنا عن الضوء إلا لأن الظلام يحاصرنا فلا نبصر شيئا، فما قيمة نعمة البصر مع ذلك الظلام غير أننا نظل ندور بأعيننا كي نرى أي شيء يدل على أننا نحمل في رؤوسنا أعين؟!

: هل صليتَ الجمعة معنا يا دكتور؟

الدكتور يشعر بالحرج، فملامح وجهه تفضح نومه عن الصلاة، عينه المنتفخة دليل على أنه استيقظ منذ قليل، يقول للشيخ: لا والله النوم غلبني كنت مرهقا جدا للأسف

الشيخ: الصلاة تجلب الطمأنينة وترك الصلاة يدخلك دائرة خطيرة بين الفقهاء يا دكتور.

: الصلاة فعلا تذيب جبال الكآبة، لكن عفوا يا مولانا أنا لا أقتنع بأن تارك الصلاة كافر، كيف يكون كافرا لأنه ترك الصلاة لانشغاله الرهيب أو لشعوره بكآبة تقعده عن الصلاة، وهو يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويحمل الخير والصلاح في أفكاره لا في حركات تعبدية يفعلها كثير من الناس ثم في معاملاتهم تجدهم شياطين!

: لا يا دكتور أستغفر الله، (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة) وهذا كلام النبي عليه الصلاة والسلام

: لكن أنا فعلا لا أستطيع، كلما حاولت لا أستطيع كأني...، لا أجد ما أعبر به عما بداخلي.

: أنا لي معك جلسة خاصة يا دكتور بعد ذلك.

يلتفت الشيخ "عبد المقصود" بوجهه تجاه الآخرين ويقول: جاهزين يا رجَّاله؟

الجميع: أيوه جاهزين، لنتوكل على الله.

ينظر ل"عوض" ويسأله: التروسيكل تمام والبنزين كفاية أم دائما تأتي العطلة نتيجة الإهمال؟

رد "عوض" يقول: تروسيكل زيرو يا مولانا، استأجرته لمدة أسبوع بألف جنيه، تخيل، الناس صاروا جشعين جدا، كل من يملك شيئا يُسخره في استعباد الآخر إن احتاج إليه هذا الآخر، المهم لا تقلق يا مولانا، فخزان الوقود ممتلئ على آخره.

ينظر الشيخ نحو الدكتور ويسأله...، فيجيب الدكتور: كله تمام .

يقول "أحمد": أنا حصلت على ثلاثة أيام أجازة الحمد لله.

الدكتور: أنا حاولت أحصل على ثلاثة أيام راحة فلم يسمح لي مدير الصيدلية فتركت العمل ومشيت، ليس عندي بديل.

الحاج "سيد" يقول: الحاج "عبد الستار" منذ أعطى ل"أحمد" المال لم يظهر ولم يكلمنا في الهاتف حتى!.

الشيخ: أساسا الحاج "عبد الستار" مهمته منتهية، مقابل عشرين ألفا دخل معنا بالنسبة، ولأنه لم يأت معنا فسيحصل على نصف ما سيحصل عليه كل منا.

رد "أحمد" وقال: زوج أختي (طول عمره واكلها والعة)، الآن لو حدث لنا أي مكروه فهو آمن، فقط سيخسر عشرين ألفا لا قيمة لهم عنده، ولو كانت مئة ألف!، أما لو عُدنا بالكنز سالمين ستكون له نسبة كبيرة جدا ربما مليونين ونصف على حد تخميني!

نظر الشيخ وقال له متعجبا: ومن أين تخمينك؟،هل تظن أن الكنز يتعدى المليار مثلا؟

قال: ربما، وربما أقل وربما...

قاطعهم "عوض" قائلا: يا أسيادنا نحن وافقنا على شراكة رجل شبعان لأجل عشرين ألفا ورضينا بذلك، لا داعي لكلام لا فائدة منه الآن، والله لو الكنز كان عبارة عن حقيبة يد بها 250 ألف جنيه فسوف نسجد جميعا لله شكرا.

علت ضحكات الجميع حتى خبط "أحمد" الدكتور بكفه على كتفه وأخذ يبجبج بالضحك، والدكتور يقول له: هل ستموت من نكتة؟، فكيف لو شاهدتَ الكنز بعينيك؟!

ثم حوَّل بصرَه لعوض وقال: وأنت، لماذا 250 ألف بالتحديد؟

فقال وهو يضحك: على أساس ربع مليون، أحب الرقم المضاف له لفظة مليون، أقول ربع ونصف مليون وأشعر بأنني مليونير، وأخذ يضحك ثم قال وقد استعاد ملامح وجهه الجادة، ولو أقل والله راضيين.

ثم اتجه ناحية التروسيكل بعدما وضعوا فيه أدواتهم، وسبقهم على أول الطريق خارج حدود البيوت وبعيدا مرأى الناس، وذهبوا هم كل من طريق حسب الخطة ليتقابلوا جميعا عند بوابة مدخل المدينة، كانت الساعة الرابعة إلا الربع بعد العصر، بينما كان الحاج "عبد الستار" ممددا رجله على أريكته يشاهد مستجدات الأخبار.

وظهر الجميع لبعضهم بينما توقف التروسيكل أمامهم بالاتجاه المقابل، فهبوا جميعهم للقفز بداخله، وانطلق "عوض" كما لو كان يقود طائرة تقل عددا من رجال الأعمال الذاهبين في مهمة سرية خارج حدود البلاد، وما إن سار التروسيكل مئتا متر إلا وقد أصيبت إحدى الإطارات بثقب، توقف "عوض" على يمين الطريق قرب شجرة عملاقة، ونزلوا جميعا يساعدونه في تغيير الإطار وتركيب (الإستبن) مكانه، رفعوا جانب التروسيكل بينما وضع "عوض" خشبة سميكة أسفل الصندوق ليظل مرتفعا عن الأرض مقدار تركيب وفك الإطار، والتفوا حول المهمة بقلب رجل واحد ينبض خوفا من أي عقبات، سيما تيبُسِ إحدى صواميل الإطار، قال الشيخ: ناوله المفتاح يا أستاذ "احمد" ليدق على طرف الصامولة قليلا.

قال "عوض": لا، الأصح أن نقوم بتسخينها وسوف يطقطق الصدأ المتسبب في يبوسها، المشكلة ليست عسيرة لأن الصواميل جديدة، يبدو أن الماء...

قاطعه الدكتور في حدة: انجز عملك وكفى شرح ما لا يفيد الآن، خذ الولاعة وقم بتسخين الصامولة ولا احرق ميتين أبو التروسيكل على أصحابه.

اكفهر وجه "عوض" وراح يرد لكن الشيخ وضع يده برفق على فمه والتفت للدكتور "هاني" وقال: استهدى بالله يا دكتور لا داعي للعصبية، خلينا طيبين.، والتفت لعوض وربت على كتفه وهو يدفعه لاستئناف مهمته.

أشعل "عوض" الولاعة بلسانها المرتفع وظل يحاول الفك حتى استدارت الصامولة ونجحت المهمة، قام بتركيب الإطار الاحتياطي وأنزلوا التروسيكل برفق من على الخشبة، ونفض "عوض" يديه وهو ينظر للدكتور بحنق، قفزوا في الصندوق جميعا وقت أن أدار "عوض" المحرك تأهبا للانطلاق، وعلق الدكتور قائلا: ماذا لو في حياتنا إطار احتياطي، إن توقف الإنسان عن الحركة وتيبس مكانه لأي سبب، يسهل عليه تغيير الاحتياطي ويستأنف رحلته في الحياة بسهولة؟!

قال الشيخ: الاحتياطي هو الصبر والعزيمة يا دكتور.

مرت خمس عشرة دقيقة إلى أن وصل الفريق إلى القرية، كانت جموع الناس على مرمى البصر على الطريق العمومي، فجأة ينظر الشيخ مقطبا

جبينه واضعا يده فوق رأسه مشبكة في ذهول، وبدت عليه علامات الدهشة والضجر معا، سألوه جميعا بكلمة واحدة: ماذا يجري يا مولانا؟

لم يجبهم الشيخ بكلمة واحدة، وقفز من الصندوق وجرى باتجاه بيتٍ هناك خلف الشجرة الأضخم بين مثيلاتها، بينما هم ينادون عليه وينظرون لبعضهم بسيل من المشاعر المضطربة، أكمل "عوض" قيادة التروسيكل عدة أمتار حتى وصل عند أول جمع للناس، وأخذ في سؤال أحدهِم: ماذا يجري هنا من فضلك؟

قال له الرجل في أسى: لقد وجدوا امرأة في الصباح ميتة بطريقة بشعة وكأن أسدا افترسها، يقول البعض أنها كانت مسحورة، تقريبا قتلها الجن.

نظروا لبعضهم بوجوه مُصفرة ومُحمرة، كل منهم غرق في تفكيره القاتل، إعتلت وجوههم حالة من الحنق والجزع كمن يُغشى عليه من الموت، لا يستطيع كل منهم قول كلمة، ماذا حدث؟، ماذا سنصنع؟، كيف سنـ...؟؟؟

أسئلة تتقافز في رؤوسهم بلا جدوى، الكل يفكر في نفسه وما سيلاقيه من أثر... بينما كان الحاج "عبد الستار" في بيته يستمع للمذيع في نشرة الأخبار وهو يقول:

هذا وقد نفَت الخارجية الإيطالية معلومات عن كون الحاوية التي بها قطع الآثار المصرية المهربة لديها لها علاقة بإحدى الشخصيات الدبلوماسية كما يزعم البعض، وأنها لم تخرج من ميناء الإسكندرية بل تم تداولها أثناء الرحلة تجاه ميناء (نابولي)، وأن إدارة الجمارك قد أبلغتهم بأن الحاوية

محتجزة لديهم منذ عام، وهي مملوكة لمواطن إيطالي جاري البحث عنه، وعند العثور على معلومات جديدة فسوف تخبر السلطات الإيطالية مصر بذلك .

هنا توقف كلّ شيء، وأصبحت كلّ حركات أبطالنا محض عبث، وأن ليس لديهم الآن سوى أن يمزقوا أوراق تلك الرواية غير واضحة الملامح، وربما يكتبون رواية خيالية يحصلون من خلالها على ما يريدون.

تمّت

****

عن المؤلّف:

الكاتب/ محمد إسماعيل شريف

روائي وقاص مصري مواليد الدقهلية عام 1983

يعمل في مجال المساحة والمقاولات، حاصل على معهد المساحة والخرائط من مدينة الزقازيق، وعلى دبلومة المساحة المستوية من مؤسسة فكر للتدريب.

درس العلوم الشرعية وحفظ القرآن الكريم في معهد القراءات بالمنصورة، وكذلك المعاهد والدورات العلمية الخاصة، يعمل في حياته بنظرية التعلم الذاتي الأكثر رحابة من تنميط وتأطير التعلم حسبما يراه في مناهج التعليم، ناشط في مجال الفكر العربي والإسلامي.

صدر له العديد من الأعمال الروائية والقصصية والمقالات:

- روايته تلك التي بين أيديكم (طاحونة النمل)
- رواية (وسقطت أوراق الكافور) عن مركز الحضارة العربية للنشر والدراسات 2017
- قصص (مشاعر شتاء) عن دار المكتبة العربية للنشر والتوزيع 2018

- رواية (ذوات مهمَلة) عن دار اسكرايب للنشر والتوزيع 2020
- رواية (عزبة الخواجة) عن دار اسكرايب للنشر والتوزيع 2021
- قصص منفردة في كتب جماعية عن دار اسكرايب ودار يافي عام 2019
- عشرات القصص والمقالات في صحف وجرائد ومجلات وعلى منصات إلكترونية.
- وله قيد النشر رواية (أسرى في غُرف الضباب)
- وكتاب (شطحات وذكريات)
- وأعمال أخرى قيد الكتابة بإذن الله.

ت/01093521123

01289553251